الفصل الخامس

دمغ الباطل

وفيه مبحثان

وفيه يذكر الباحثُ بعضَ العوامل المقدوح بها في دقة تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم من جبريل عليه السلام من منظور البحث وزاويته، فبعدما توافرت عوامل الإيجاب على تحرير متعلقات موضوع تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن من جبريل عليه السلام، وجبت الإشارة إلى نفي عوامل السلب عن ذلك التلقي من حيث خصوص هذا الموضوع، فكان هذا الفصل منعقداً لهذه الغاية .

ودَحْضُ ما يقدح به في هذا الموضوع داخلٌ ضمن ما سبق، **فبمجرد معرفة طبيعة الوحي القرآني، وإنزاله، وتعليمه، وتَعَلُّمِه بين النبي ﷺ وجبريل عليه السلام تُدْحضُ كل شبهةٍ**، ولكن مرضى العقول، وسَقَمَة القلوب قد تعتريهم نفثات الشياطين، فيورون زَنْدَ الشبهة، ليوقعوا غيرهم في البلبلة والاضطراب التصوري لحقائق القضايا الاعتقادية، وليس الأمر مع الصنف الأول مستلزماً النقاش لفساد الأصل الذي يتكئون عليه، إلا أن النقاش يكون مع من يتأثر بعقابيل أقوالهم، وخبال زللهم...ومجموع الشبه الواردة في باب تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن من جبريل عليه السلام مَرَدُّها إلى جهتين:

جهة تأثير العوامل الخارجية: على تلقي النبي ﷺ من حيث أن جبريل عليه السلام ينتمي إلى العالم الغيبي، فقد يُزْعَم أن الموحِي له قد يكون ساحراً، أو جناً، أو يؤثر هذان في النبي ﷺ حال تَلَقّيه الوحي، فيحسب الكلمة من جبريل عليه السلام وهي من غيره، فجماع هذه العوامل هو الاتهام بالتخيل لعدم الثقة بكون المُلْقِي بالوحي هو جبريل عليه السلام لاحتمالية كونه غيره .

وجهة تأثير العوامل الداخلية: ويُراد بها ما يعتري الإنسان من ضعفٍ، وقصورٍ يؤثران على استيعابه للفظ القرآن الكريم؛ إذ لم يخرج النبي ﷺ عن طبيعته البشرية وهو يتلقى الوحي القرآني، والنسيان والقصور البشري أنموذجان لهذا النوع من العوامل .

فيتألف هذا الفصل من مبحثين:

المبحث الأول: العوامل الخارجية .

المبحث الثاني: العوامل الداخلية .

على أن شرط البحث في الكلام عن هذا الموضوع ألا يتطرق للعوامل الأخرى التي قذف بها المشركون، ولا تعلق لها بالتلقي من جبريل عليه السلام، كالاتهام بكونه ﷺ شاعراً(١)، أو كذاباً، تنزه عما يقول الظالمون، أو اتهام المسلمين بضياع شيءٍ من القرآن(٢)...؛ إذ الخوض في ذلك مُخْرِجٌ للبحث عما هو له...ولذا فإن حركة البحث هاهنا ستنحصر في هذا الشرط دون غيره .

---

(١) ولأن الشِعْر لا يعود إلى التخيل المُلْبِس لشخصية جبريل عليه السلام بغيره، وكذلك لم يُتَكَلم عن الكهانة لأنها ترجع إلى التخيل بسبب الجن أو السحر، فتُكُلّم عن أصلها .

(٢) انظر في هذا الباب: نكت الانتصار للباقلاني، مرجع سابق، فقد أنشأه مؤلفه لمثل ذلك .

المبحث الأول:
دفع العوامل الخارجية:

يجمع العوامل الخارجية المقدوح بها في صحة تلقي اللفظ (التخيل)، وتنقسم إلى خمسة أقسامٍ من حيث درؤها عن صحة تلقي النبيﷺ ،ويمكن إرجاعُها إلى أمرين: عامٍ وخاصٍ من حيث درؤها عن دقة تلقي النبي ﷺ فضلاً عن صحة تلقيه، يكونان مطلبي المبحث:

المطلب الأول: دفع تهمة التخيل في تلقي ألفاظ القرآن بصفة عامة .

المطلب الثاني: دفع تهمة التخيل في تلقي ألفاظ القرآن من حيث تفصيل العوامل المظنون إحداثها التخيل .

المطلب الأول: دفع تهمة التخيل في تلقي ألفاظ القرآن بصفة عامة:

يرجع هذا الدفع إلى جميع أركان تلقي اللفظ القرآني: من اللفظ في ذاته، وطرفي الاتصال، وطبيعة الدين الإسلامي، وينحصر ذلك الدفع فيما يلي:

١ - **بالضمان الإلهي بالحفظ لكتابه:** وهذا ضمانٌ عامٌ، إثباتاً للقرآن، ونفياً لما عداه عنه، ومستنده قولهﷻ ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ "الحجر /٩" .

وتقدم أن الحفظ يقتضي الحراسة والمراقبة([1])، وهو مدلوله هنا...وفي هذه الآية جيء بالجملة الاسمية مؤكدةً بتوكيدين، ونسب فيها الحفظ المحذوف متعلّقه إفادةً للعموم إلى ضمير العظمة، وفي ذلك من الدلالة على الاعتناء بأمر القرآن ما فيه([2]) .

٢ - **بالضمان الإلهي بعدم تطرق شائبةٍ من الباطل إليه:** وهذا ضمانٌ خاصٌ يدحر عوامل السلب، بعد الضمان العام بالمحافظة الشاملة لإثبات كلام اللهﷻ في كتابه، ونفي

([1]) انظر: المبحث الخامس من الفصل الرابع ص٢٣٥ .

([2]) انظر: روح المعاني ١٢/١٤، مرجع سابق .

أن يتطرق إليه غيره، فكان هذا الضمان تأكيداً ثانياً على نفي عوامل السلب من أن تتطرق لكتاب اللهﷻ، كما قال ﷻ ﴿**وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ "فصلت /٤١ -٤٢"، والمراد استمرار النفي، لا نفي الاستمرار([1]).

وإثبات هذا النفي يعتمد على إحدى مقدمتين:

إما أن يثبت للمدعو صدق الرسولﷺ في دعوى الرسالة بغير بينة القرآن الكريم، لِيُصَدَّق -بعدُ- في هذا الضمان،

وإما أن يثبت للمدعو كون القرآن بلفظه، أو بمعناه، أو بهما معاً ليسا من بشرٍ، بل من اللهﷻ من خلال بضعِ حديثٍ من القرآن يُتْلَى، فَيُصَدَّقَ الرسولﷺ في بقية القرآن .... وقد تحققت كلا المقدمتين([2]).

٣ - **بمعرفة طبيعة الوحي القرآني**: إذ حقيقته كلام اللهﷻ الذي أنزل إلى الأرض لينذر به من حضر، ومن بلغ، وهذا يقتضي الديمومة والبقاء والهيمنة...وإذا كانت هذه ماهيته، فيستحيل طروء تغيير فيه من خارج مكان إنزاله، ولذا ورد في سورة التكوير الربط بين نفي ما وجه إلى الرسول الأكرم ﷺ وبين طبيعة الوحي ﴿**إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ**﴾"التكوير/٢٧"، وكذلك في سورة النجم حيث نفى طعن الطاعنين في الوحي الذي يتلوه رسول الله ﷺ بقولهﷻ ﴿ **مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى*وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى**﴾ "النجم /٢-٣"، ثم بَيَّنَ طبيعة الوحي بقولهﷻ ﴿**إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى**﴾ "النجم/٤"، فدعوى التخيل فيه مضاد لطبيعته، وهذا التقرير يكون لمن يُسَلِّمُ بالوحي ابتداء،

([1]) انظر: روح المعاني ٢٧١/١٧، مرجع سابق .

([2]) راجع مثلاً: القاضي عياض بن موسى اليحصبي: الشفا تعريف حقوق المصطفى، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، وغيرها من كتب السيرة أو الإعجاز القرآني البياني والعلمي والتشريعي... .

ثم يعتريه إرجاف المرجفين؛إذ لو استجاب للشبهة لوصل إلى خُلْفٍ من القول: بأن يُسَلَّمَ بالوحي القرآني ويعرف طبيعته، ثم ينقضه بقبول المرجفات حوله .

وما سبق كان حفظاً للمُنْزَل، ونفياً لأي دخل من خلال القرآن المُلْقَى، **فتصوره كافٍ في نفي ما يظنه المتخرص رجماً بالغيب، وثَمَّ حفظٌ للنازل به، والمُنْزَل عليه**، ونفيٌ لأي قدحٍ في صحة تلقي اللفظ القرآني، ودقته من خلال ذلك، وهو ما يأتي:

٤ - **بتأكيد الاتصال الحسي بين جبريل**عليه السلام والنبي ﷺ وهو ما تراه في قوله سبحانه: ﴿ **مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى** ﴾ "النجم /١١-١٢" .

فالكذب يطلق على التخيل والتلبيس من الحواس، كما يقال: كذبته عينه(١)، وهم ولجوا له من باب التخيل بمجادلة أو جحوداً، إذ قراءة ﴿**تُمَارُونَهُ**﴾(٢) من المراء وهي المجادلة، وقراءة ﴿**تُمْرُونَهُ**﴾من مراه إذا جحده، **كأنه قال: بعضكم يجادله، وبعضكم يجحده، كما هو المعتاد في توزيع الأدوار المخطط أو التلقائي في عالم المعاندين** .

فالأظهر أن قوله تعالى ﴿**مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى** ﴾ "النجم/١١"، تدور حول معنيين:

أحدهما: أن هذا ردٌ لتكذيبٍ من المشركين فيما بلغهم من الخبر عن رؤية النبي ﷺ المَلَك جبريل عليه السلام، وهو الذي يؤذن به قوله -بعد- ﴿**أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى**﴾ و﴿**ال**﴾ في قوله ﴿**الْفُؤَاد**﴾ عوضٌ عن المضاف إليه، أي فؤاده، وعليه فيكون تفريع الاستفهام في قوله ﴿**أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى**﴾ استفهاماً إنكارياً لأنهم ماروه .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٩٩، مرجع سابق .

(٢) قرأ (تمارونه) بإثبات الألف أبو عمرو وابن كثير ونافع وابن عامر وأبو جعفر وعاصم من العشرة، والبقية بحذف الألف. انظر: طيبة النشر في القراءات العشر، مرجع سابق، عند قول الناظم في سورة النجم: (تمروا تماروا حبر عم نصا) .

والآخر: أن يكون ﴿**مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى**﴾ تأكيداً لمضمون قوله ﴿**فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**﴾ لرفع احتمال المجاز في تشبيه العرب، أي هو قربٌ حسيٌ، وليس مجرد اتصالٍ روحاني، فيكون الاستفهام في قوله﴿**أَفَتُمَارُونَهُ**﴾ مستعملاً في الفرض، والتقدير: أفستكذبونه فيما يرى بعينيه، كما كذبتموه فيما بلغكم عن الله ﷻ(١).

والمعنى: رآه بعينه، وعرفه بقلبه، و لم يشك في أن ما رآه حق(٢)، **ويمكن للباحث أن يقول: إن قراءة التشديد﴿كَذَّبَ﴾ تفيد يقينه مما رآه، وقراءة التخفيف﴿كَذَبَ﴾ تفيد صدقه فيما نقل (٣)... وفي ذلك تنويهٌ بمدى الدقة، وطمأنينةٌ بحقيقة الواقع المحكي...** وتعدية الفعل بحرف الاستعلاء لتضمنه معنى الغلبة أي: **هبكم غالبتموه على عبادتكم الآلهة، وعلى الإعراض عن سماع القرآن، ونحو ذلك، أتغلبونه على ما رأى ببصره(٤)**، فهذا المقطع يؤكد تلقي الرسول ﷺ عن جبريل عليه السلام تلقي رؤيةٍ، وتمكنٍ ودقةٍ، لا رؤية قلبٍ، وعينٍ فحسب، وخص الفؤاد؛ لأن رؤية الفؤاد لا يتأتى معها تخيل، بخلاف رؤية

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢٦/٩٩، مرجع سابق .

(٢)انظر: البحر المحيط ٨/١٥٨، مرجع سابق، وقد قيل: إن المرئي هو الله ﷻ، ويكفيه ضعفاً حديث عائشة -رضي الله تعالى عنها- المتقدم لفظه في المبحث الأول من الفصل الثالث ص٧٧ وما قبلها-، والحديث في صحيح مسلم ١/١٥٩، مرجع سابق .

لا جرم أن نقدم خبر عائشة على تأويل ابن عباس؛ فترجيحه ظاهرٌ من حيث أنها سألت رسول الله ﷺ ، أما ابن عباس فظاهر كلامه أنه مجرد استنتاج، فتطرق الاحتمال إلى روايات غيرها لا إلى حديثها كما هو ظاهر، وانظر: البحر ٨/١٥٨، مرجع سابق، تفسير ابن كثير ٤/٢١٠، مرجع سابق، وانظر: المبحث الأول في الفصل الثالث .

(٣) قرأ بالتثقيل هشام عن ابن عامر، وأبو جعفر من العشرة، وبقية العشرة بالتخفيف...انظر: (ابن الجزري) محمد بن محمد بن محمد بن علي ت ٨٣٣هـ: طيبة النشر في القراءات العشر ص٩٧، مرجع سابق، عند قول الناظم: (كذب التقيل لي ثنا) .

(٤) انظر: حاشية الصاوي ٤/ ١٧٥، مرجع سابق، التحرير والتنوير ٢٦/٩٩، مرجع سابق، وقيل: إن المراد أمر الإسراء والمعراج، والسياق وسبب السورة يُبعدان ذلك، وتقدم نوع إشارة لذلك، انظر : المبحث الأول من الفصل الثالث ص٧٢ .

العين التي قد تخدع خداع نظر([1])، **وقد تقدم مراراً([2])أن رؤية النبي ﷺ لجبريل عليه السلام وسماعه له حال إلقاء الوحي يكون متصلاً بمركز السمع والبصر في الفؤاد مباشرة .**

٥- **برؤية النبي ﷺ** لجبريل عليه السلام في صورته التي خلقه الله عز وجل عليها عياناً كما قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾** "التكوير/٢٣"، وقال: **﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾**"النجم/١٣": أي إن كنتم تجحدون رؤيته ﷺ لجبريل عليه السلام في الأرض، فلقد رآه رؤية أعظم من حين يأتي إليه للوحي إذ رآه في العالم العلوي...وأكد ذلك بالقسم، فضمير الرفع في رآه عائد إلى صاحبكم، وضمير النصب عائد إلى جبريل عليه السلام، وأكد ذلك بقوله **﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾** "النجم/١٧"، أي: رأى جبريل عليه السلام رؤية لا خطأ فيها، ولا زيادة على وصف، أي لا مبالغة فيها([3]) .

ومن حكم رؤية النبي ﷺ لجبريل عليه السلام في هيئته التي خلق عليها: أن يَطْمَئِنَّ في ذاته إلى ملائكية جبريل عليه السلام فرآه على هيئته الحقيقية مرتين، وأكد ذلك بالقسم؛ إذ اللام في قوله **﴿وَلَقَدْ﴾** موطئةٌ للقسم، أي: وبالله لقد رآه([4]) .

فالمرة الأولى: بالأُفق المبين، قيل: بعد أمر غار حراء، حين رآه على كرسي بين السماء والأرض له ستمائة جناح([5])، والأُفق: الفضاء الذي يبدو للعين من الكرة الهوائية بين طرفي مطلع الشمس ومغربها من حيث يلوح ضوء الفجر ويبدو شفق الغروب، وهو يلوح كأنه قبة زرقاء، والمعنى: رآه بين السماء والأرض، وقيل في معنى الأُفق غير ذلك ([6]) ...وأياً كان فوصفه بـ **﴿الْمُبِينِ﴾** أي الأُفق الواضح البين، والمقصود: نعت الأُفق الذي

([1]) انظر: ظلال القرآن ٣٤٠٥/٦، مرجع سابق .

([2]) انظر –مثلاً-: المبحث الأول من الفصل الثالث ص٧٧ .

([3]) انظر: التحرير والتنوير ١٠٠/٢٦، مرجع سابق .

([4]) روح المعاني ١٠٦/٣، مرجع سابق .

([5]) انظر: البخاري ٣/١، مرجع سابق .

([6]) انظر: التحرير والتنوير ١٠٠/٢٦، مرجع سابق، والغير المذكور ليس المراد منه المغايرة الكلية (التباين) بل من حيث الخصوص، أي اختلف في تحديد مكان جهة الأُفق .

تراءى فيه جبريل عليه السلام للنبي ﷺ بأنه أُفقٌ واضحٌ بينٌ لا تشتبه فيه المرئيات، ولا يتخيل فيه الخيال، وجعلت تلك الصفة علامةً على أن المرئي ملك، وليس بخيالٍ؛ لأن الأخيلة التي يتخيلها المجانين إنما يتخيلونها على الأرض تابعةً لهم على ما تعودوه من وقت الصحة([1])، وقد وصف النبي ﷺ الملَك الذي رآه عند نزول سورة المدثر بأنه على كرسيٍ بين السماء والأرض([2])، ولهذا تكرر ذكر ظهور الملَك بالأُفق في سورة النجم في قوله ﷻ **﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى(٥)ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى(٦)وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾** -إلى أن قال- **﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى...الْمَأْوَى﴾** "النجم/٥-١٨" .

والمرة الأخرى عند سدرة المنتهى([3])، وتكرار الرؤية للتأكيد؛ لئلا يكون للوهم سبيل إلى نفسه وسائر من بلغ من الخلق أجمعين، وقد كانت الأخرى في مكانٍ لا يُشَكُّ فيه، ولا يزيغ البصر عنده، ولا يطغى .

٦ – **عصمته** ﷺ من التقول على الله ﷻ عمداً، أو خطأً، أو سهواً، وكل ذلك محالٌ في حقه ﷺ، وقد اجتمعت الأمة على عصمته فيما طريقه البلاغ من الأقوال، وأنه معصومٌ عن الإخبار عن شيءٍ منها بخلاف ما هو به لا قصداً ولا عمداً، ولا سهواً، ولا غلطاً([4])، ولذا قال الحلبي -رحمه الله تعالى- في سيرته: "عُلِمَ وتقرر في النفوس من عصمة الأنبياء من الشيطان، واختص نبينا ﷺ من بين سائر الأنبياء-عليهم الصلاة والسلام-بالختم([5]) في المحل المذكور مبالغةً في حفظه من الشيطان، وقطع أطماعه"([6]).

([1]) التحرير والتنوير ١٥٩/٣٠، مرجع سابق .

([2]) انظر: البخاري ١ / ٣، مرجع سابق .

([3]) راجع: البحر المحيط ٤٣٥/٨، مرجع سابق .

([4]) الشفا تعريف حقوق المصطفى ينظر ٢٠/٢ وما بعدها، مرجع سابق .

([5]) يعني الخاتم الذي كان بين كتفيه ﷺ المعروف بخاتم النبوة .

([6]) (الحلبي) علي بن برهان الدين ت ١٠٤٤هـ: السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون ١٦١/١، دار المعرفة – بيروت ١٤٠٠هـ، وقد ألف في عصمة الأنبياء: الإمام شمس الأئمة الكردري الحنفي المتوفى سنة ٦٤٢هـ، ببخارى

ولا يعني ذلك نفي سهوه، أو نسيانه مطلقاً، بل يحدث ذلك منه لمكان الاقتداء بما يترتب على سهوه، أو نسيانه، لكنَّ المنفي بقاء ذلك بما لا تُحْكَمُ معه كلمات الله ﷻ، وذا شبيهٌ بما كان يصدر منه ﷺ من السهو في الصلاة، فكذلك سهوه في قراءة القرآن بعد الإبلاغ، ومكان التفصيل في ذلك بعد قليل -إن شاء الله تعالى-([1]) .

٧ - **تدخل القدرة الإلهية** مباشرةً عند حصول تقولٍ من النبي ﷺ سهواً، أو عمداً مع عدم من يستطيع إثبات ذلك التقول، وهذا تنزلاً وإلا فهو غير واقعٍ، ولا متوقعٍ، ودليله قوله ﷻ **﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ...﴾** "الشورى/٢٤" . وقد شمل قوله ﷻ **﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ(٤٤)لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ(٤٥)ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(٤٦)فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾** "الحاقة /٤٤-٤٧"، حالة التقول عمداً، أو سهواً، وهو ما عبر عنه الشيخ إبراهيم الكوراني-رحمه الله تعالى-بقوله: "السلطان المنفي عن العباد المخلصين، هو الإغواء أعني التلبيس المخل بأمر الدين، وهو الذي الإجماع على أن النبي ﷺ معصومٌ منه".

٨ - **استحالة تغيير هيئةٍ من هيئات أدائه** ﷺ فضلاً عن حرف من حروفه؛ لقوله ﷻ **﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾** "يونس/١٥"، وللأمر الإلهي المقترن بالوعد في قوله ﷻ **﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾** "القيامة/١٧"، كما تقدم([2]).

كتاب: "تأسيس القواعد"، قال حاجي خليفة: "وهو كتاب عصمة الأنبياء" انظر: كشف الظنون لحاجي خليفة ٣٣٣/١، مرجع سابق، وفي ١١٤١/٢: "عصمة الأنبياء" لفخر الدين الرازي، و "عصمة الأنبياء وتحفة الاصفياء" للشيخ أحمد بن الشيخ مصلح الدين الشهير بالمركز وابن السيف الكرميانى مبوبةً على أبوابٍ ثلاثة، ومفصلةً على ستين فصلاً، كل بابٍ يحتوى عشرة فصول .

([1]) انظر: المبحث الثاني من هذا الفصل ص٢٧٥.

([2]) انظر: المبحث السادس من الفصل الثالث ص١١٣.

٩-**بحراسة الرسول ﷺ من أن يأتيه عدوٌ غيبيٌ يناله بسوءٍ في نفسه أو وحيه:** هذه الحراسة تُثَبِّتُ قلب النبي ﷺ، وتزيد المؤمنين إيماناً، وتدحر تخرصات المشركين، وذلك كما قال ﷻ:﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا**(٢٦)**إِلاَّ مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا**(٢٧) **لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا** ﴾ "الجن /٢٦- ٢٨".

فقوله ﷻ: ﴿**فَإِنَّهُ** ﴾ عائد إلى الله ﷻ، ﴿**يَسْلُكُ**﴾ وهو لا محالة عائد إلى الله ﷻ، كما عاد إليه ضمير﴿**فَإِنَّهُ**﴾، والثالث والرابع ضميرا﴿**مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ**﴾ وهما عائدان إلى ﴿**رَسُولٍ**﴾، أي فإن الله يسلك، أي يرسل للرسول ﴿**رَصَدًا**﴾من بين يدي الرسول ومن خلفه، أي ملائكةٌ يحفظون الرسول ﷺ من إلقاء الشياطين إليه ما يخلط عليه ما أطلعه الله ﷻ عليه من غيوبه، والمراد بـ﴿**مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ**﴾ الكناية عن جميع الجهات، والمراد من تلك الكناية السلامة من التغيير والتحريف .

والرصد: اسم جمع، ونصب على أنه مفعولٌ به للفعل﴿**يَسْلُكُ**﴾، ويتعلق﴿**لِيَعْلَمَ**﴾ بقوله ﴿**يَسْلُكُ**﴾ **أي يفعل الله ﷻ ذلك ليبلغ الغيب إلى الرسول، كما أرسل إليه لا يخالطه شيء مما يُلْبِسُ عليه الوحي، ويعلم الله ﷻ أن الرسل أبلغوا ما أوحي إليهم، كما بعثه دون تغيير .**

وفُهم من قوله ﴿**أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ** ﴾ **أن الغيب المُتحدَث عنه هو الغيب المتعلق بالشريعة وأصولها من البعث والجزاء، ورأس ذلك الوحي القرآني،** وقوله ﷻ ﴿**وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا** ﴾ الواو واو الحال فالجملة حالية، أو أن الجملة اعتراضية؛ لأن مضمونها تذييلٌ لجملة﴿**أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ**﴾ أي أحاط بجميع ما لدى الرسل من تبليغ وغيره، وأحاط بكل شيءٍ مما عدا ذلك، فقوله ﷻ ﴿**وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ** ﴾ تعميمٌ بعد تخصيص ما قبله بعلمه، وتبليغهم ما أُرسِل إليهم، وقوله

﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ تعميمٌ أشمل بعد تعميم .وعبّر عن العلم بالإحصاء على طريقة الاستعارة تنبيهاً بعلم الأشياء بمعرفة الأعداد، وذلك دالٌ على دقة وشمول العلم الإلهي([1]).

وهذا الحفظ يشمل الرسول الملَكي، والرسول البشري لعموم﴿مِنْ رَسُولٍ﴾، والضمير في ﴿لِيَعْلَمَ﴾ صالحٌ لمعنىً آخر: هو العودة على الرسل، أي ليعلم الرسل، والمراد هنا زيادة اطمئنانهم بأن ما أمروا بتبليغه هو ذاته ما بلّغوه لم يستطع أحدٌ أن يزيد فيه أو ينقص للحراسة الغيبية من العالم الغيبي المعادي، كما يصلح الضمير لمعنىً ثالث هو العودة على المشركين، والتقدير: ليعلم أهل الشرك أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم...([2]).

١٠ - **(وهو كليةٌ لما قبله) بتفصيل صفات الرسول** الذي يحمله، والرسول الذي يُبَلِّغه والتأكيد عليها: إذ يلزم عنها لذاتها نفي تسرب الخلل وهماً، أو تخيلاً، نقصاً أو زيادة، وقد تقدمت مؤهلات المعلم التي يلزم عنها لذاتها نفي كل ريبٍ، ودحر كل وسواسٍ([3])، كما تقدمت التهيئة الخاصة بالرسول ﷺ([4]).

١١ - **(وهو كليةٌ لما قبله أيضاً)إكمال الدين**، فقد قال ﷻ ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾"المائدة /٣ "، وهو كافٍ في منع الزيادة أو النقصان في اللفظ، ومن ثم فلا مجال لزيادة آيةٍ أو نقصانها في القرآن إلا ما جاء من قائل هذه الآية، أي من الله ﷻ مما نزل بعد تلك الآية، والتعبير بالإكمال للدين دون الإتمام فيه مزيد مزيةٍ لأنه يعني الإكمال المطلق، أما التمام فهو التمام الإضافي النسبي .

([1]) انظر: التحرير والتنوير ١٥٤/٢٩، مرجع سابق .

([2]) انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٣٦٧، مرجع سابق .

([3]) انظر: الفصل الأول من هذه الدراسة ص١٤

([4]) انظر: المبحث الأول من الفصل الثاني من هذه الدراسة ص٥٠ .

١٢- **إجمالٌ لنفي جميع العوامل**: بأن يقال: **الخللُ المقدوح به في تلقي اللفظ القرآني**: إما أن يكون تخيلا دائماً، أو طارئاً،

فالأول وهو التخيل الدائم باطلٌ برؤية المشركين وشهادتهم؛ إذ لم ير المشركون له نداً في عقله أفيتهمونه بعد إذ بلغ أشده، وبلغ أربعين سنة؟([1]).

والثاني وهو التخيل الطارئ: إما أن يكون غير متعمدٍ، وإما إن يكون متعمداً،

فالأول وهو الطارئ غير المتعمد فليس إلا الجنون، أو الضلال في التفكير، فأما الجنون فهو ما قالوه ﴿**مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ**﴾ "الدخان /١٤" نفاه الله ﷻ عنه في سورة التكوير، ويأتي ذكره بأكثر من هذا بعد قليل([2])، وأما الضلال في التفكير فنفاه عنه في سورة النجم؛ إذ قال: ﴿**مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ**﴾، وبينهما تقارب؛ لأن المجنون لا يهتدي إلى وسائل الصواب، وهو معنى ﴿**ضَلَّ**﴾،

والثاني وهو الطارئ المتعمد: فإما أن يكون الشعر؛ كما قالوا﴿**أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ**﴾ "الطور /٣٠"، وإما أن يكون السحر؛كما قالوا ﴿**إن هذا إلا سحر يؤثر** ﴾ "المدثر /٢٤"، وإما أن يكون الكذب؛كما قالوا﴿**إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاَقٌ**﴾"ص /٧"، وكلها زعمه المشركون المبطلون في رسول الله ﷺ فنفاها الله ﷻصراحةً **على وجه الخصوص** في غير ما موضع كما قال ﷻ ﴿**إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ**﴾ "الحاقة /٤٠-٤٢"، **وعلى**

([1]) وفي ذلك قال النضر بن الحارث –وهو من ألد المشركين عداوة للنبي ﷺ –: "يا معشر قريش! قد نزل بكم أمرٌ ما أتيتم له بحيلةٍ بعد، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً: أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة...حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر! لا والله ما هو بساحر، وقلتم كاهن! لا والله ما هو بكاهن! وقلتم شاعر! لا والله ما هو بكاهن، وقلتم مجنون! لا والله ما بمجنون...يا معشر قريش! فانظروا في شأنكم، فإنه قد نزل بكم أمر عظيم" . انظر: أنساب الأشراف للبلاذري ١٣٩/١ .

([2]) انظر ص ٢٦٠ من هذه الدراسة .

وجه العموم بإرجاعها إلى أصلها؛ إذ السحر والكذب ضلالٌ وغوايةٌ فنفاه في سورة النجم، والشعر المتعارف بينهم غواية كما قال ﷻ ﴿**وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ**﴾ "الشعراء / ٢٢٤" أي يحبذون أقوالهم لأنها غواية([1])...فقد نفى عموماً وخصوصاً، وشرد بهم آراءهم، وقَذْفَ الشياطين في عقولهم .

ثم دحض أساس المتعمد بأنواعه بالتزكية له ولما ينطق به، فقال:﴿**وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى**﴾ "النجم/٣"؛فإن المراد استمرار نفي النطق لا نفي استمرار النطق([2])، **وهنا نأخذ صراحة التوقيف في القراءة**؛ فقد قال قتادة -رحمه الله تعالى- في معناها: "أي ما ينطق بالقراءة عن هواه"([3]).

والهوى ميل النفس إلى ما تحبه أو تحب أن تفعله دون أن تقتضيه العقل السليم... ونفى النطق عن هوىً يقتضي نفي جنس ما ينطق به عن الاتصاف بالصدور عن هوى سواء كان القرآن أو غيره، ولكن القرآن هو المقصود لأنه سبب هذا الرد عليهم([4]).

المطلب الثاني: دفع تهمة التخيل في تلقي ألفاظ القرآن من حيث تفصيل العوامل المتهمة بإحداث التخيل:

وهي أربعة عوامل:

أولاً: دفع تهمة التخيل بسبب الضلالية التفكيرية:

إذ ربما قال قائل: إن اعتكافه وتحنثه ﷺ ، ثم اعتزاله لعوائد قريش قد أوصله إلى خطوطٍ ضالةٍ في التفكير، وإن قصد الخير ورام الحُسْنَ، فيبدأ بكلامٍ حسنٍ لينتهي بعده إلى

([1]) انظر: التحرير والتنوير ٢٦/٩٣، مرجع سابق .

([2]) انظر: تفسير أبي السعود ٥/٢١٨، مرجع سابق .

([3]) انظر: الشوكاني٥/١٣٠، مرجع سابق .

([4]) التحرير والتنوير ٢٦/٩٣، مرجع سابق .

ما لا يُرْتضى، أو ربما سولت له عُزْلَته طَرْقاً غوياً يُحَسِّنُ ابتداءه بما يقول من بديع الكلم، ثم يستبين عِوَجُ سيره بعوج قصده...لذا كان القسم في سورة النجم كالاستئناف البياني بعد أن ذكر في سورة الطور اتهامهم إياه بما تصوره كافٍ في إبطاله، فكأن بعض القلوب قد مالت إلى النبي ﷺ ثم اعتراها التفكير المُسَطِّر قبل قليل، فكان الجواب على وسوستها:

١ - **﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾: فالضلالة** عدم الاهتداء إلى الطريق الموصل إلى المقصود، وهو مجازٌ في سلوك ما ينافي الحق، **والغواية**: فساد الرأي وتعلقه بالباطل([1])، وفي تفسير الجلالين: "الغوى جهل عن اعتقاد فاسد"([2]) .

٢ - **ببيان طبيعة الوحي**: كما في سورة التكوير وسورة النجم، ففي سورة التكوير بَيَّن طبيعة الوحي ببيان غايته، فقال: **﴿إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾**"التكوير / ٢٧"، وفي سورة النجم بين طبيعته من حيث أن الذكر الحق مطلقاً الذي لا شائبة ضلال فيه، ولا غواية تعتريه لا يكون إلا عن وحي **﴿إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾** "النجم/٤"، وهو استئنافٌ بيانيٌ لجملة**﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾** "النجم / ٣ "؛كأنه قيل بعد نفي الضلال، والغواية، ونفي النطق عن الهوى: فما هو الإثبات؟ ماذا هو كائنٌ إن لم يكن مفترىً، أو سحراً، أو اختلاقاً، أو أساطير الأولين...؟ فقال:**﴿إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾**، فالضمير في **﴿هُوَ﴾** عائدٌ إلى المنطوق به المأخوذ من فعل ينطق كما في قوله ﷻ **﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾** أي العدل المأخوذ من فعل **﴿اعْدِلُوا﴾**([3])، ووضح الشوكاني -رحمه الله تعالى- ذلك بقوله: "**﴿يُوحَى﴾** صفةٌ لـ**﴿وَحْيٌ﴾** تفيد الاستمرار التجددي، وتفيد نفي المجاز، أي هو وحيٌ حقيقةٌ لا مجرد التسمية"([4]) .

([1]) انظر: التحرير والتنوير ٢٦/٩٢، مرجع سابق .

([2]) تفسير الجلالين، وهامشه حاشية الصاوي ٤/١٧٥، مرجع سابق، وقال الشنقيطي ٧/٧٠١: "الضلال يقع من الجهل بالحق، والغي هو العدول عن الحق مع معرفته، أي ما جهل من الحق، وما عدل عنه، بل هو عالمٌ متبعٌ له " .

([3]) كما في التحرير والتنوير ٢٦ /٩٤، مرجع سابق .

([4]) انظر: الشوكاني٥/١٣٠، مرجع سابق .

وقد حدث نوعُ تكرارٍ هاهنا لما سبق في رقم (٣) من المطلب الأول، فإنما ارتكب ذلك للأهمية...على أن المكرر هو فحوى الفكرة، لا تفصيلها .

ثانياً:دفع تهمة التخيل بتأثير الجنون:

شهادة الخصم للرسول ﷺ كافيةٌ لدحض هذه التهمة: حيث قال ﷻ نافياً لهذه التهمة ﴿**وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ**﴾ "التكوير /٢٢ ": **ففي التعرض لعنوان الصحبة مضافةً إلى ضميرهم تكذيب لهم بألطف وجه**؛ إذ هو إيماءٌ إلى أنه ﷺ نشأ بين أظهرهم من ابتداء أمره إلى الآن، فأنتم أعرف به، وبأنه ﷺ أتم الخلق عقلاً، وأرجحهم قيلاً، وأكملهم وصفاً، وأصفاهم ذهناً، فلا يسند إليه الجنون إلا من رُكِّبَ من الحمق والجنون، وبهذا أبطل قولهم إبطالاً مؤكداً ومؤيداً، فتأكيده بالقسم وزيادة الباء بعد النفي، وتأييده بما أومأ الله ﷻ إليه، ووصفه بأنّ الذي بلّغه صاحبُهم ﷺ، والصاحب حقيقته ذو الصحبة، وهي الملازمة في أحوال التجمع والانفراد للمؤانسة، والموافقة، ومنه قيل للزوج: صاحبة، وللمسافر مع غيره: صاحب...وقد يتوسعون في إطلاقه على المخالط في أحوال كثيرة، ولو في الشر([1])، ولما سبق عدل عن اسم العلم إلى وصفه ﷺ بـ ﴿**صَاحِبُكُمْ**﴾، وقد تقرر هذا أيضاً في مقام إثبات طبيعة القرآن المجيد، وأنه منزلٌ من عند الله ﷻ في سورة النجم، حيث قال تعالى عنه﴿**مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى**﴾ "النجم /٢" .

ثم نفى أن تكون وسوسةً ذاتيةً لأن الخلل إما من الرسول الذي حمله، أو الذي تلقاه، أو من أمرٍ خارجيٍ قذفه غيرهما بينهما، وهو الشيطان لا غير، أومن تخيلاتٍ ذاتيةٍ طرأت على التلقي من البشر، فنفى كل ذلك، وفي قوله﴿**وَمَا صَاحِبُكُمْ...**﴾ والمعنى: ليس

([1])انظر: روح المعاني ١٠٥/٣٠، ونحوه عند أبي السعود ٤٨٩/٥، والشوكاني٤٨١/٥، والتحرير والتنوير ١٥٧/٣٠، مراجع سابقة .

القرآن من وساوس المجانين، فسلامة مُبَلِّغه من الجنون تقتضي سلامة قوله عن أن يكون وسوسةً([1]) .

ودُفِعت هذه التهمة ببيان طبيعة الوحي؛كما قال ﷻ عنهم﴿مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾"الدخان /١٤"، فأجاب ﷻ ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾"الطور/٣٤"، فالمجانين يمكن تقليد كلامهم حتى على الصبيان .

ثالثاً:دفع تهمة التخيل بتأثير الجن:

وأصل هذه الشبهة في عقول أصحابها: عائدٌ إلى أمرين:

١ - **أن الجن عالم غيبي كالملائكة**، فيحتمل عندهم أن يكون ملك الوحي من الجن لا من الملائكة لاستواء الاحتمالين؛ إذ هما غيب بالنسبة للبشر، ولذا أورد ابن الأثير -رحمه الله تعالى- رواية لحديث بدء الوحي، قالت فيها خديجة -رضي الله عنها-: (أخاف أنْ يكون عُرِض له: أي عَرَض له الجِنّ، أو أصابَه منهم مَسٌّ)([2]).

٢ - **تشبيه حالة الوحي الشديدة بحالة الكهان**، قال ابن خلدون -رحمه الله تعالى-: "ولأجل هذه الغاية في تَنَزّل الوحي كان المشركون يرمون الأنبياء بالجنون، ويقولون له رئيٌ أو تابعٌ من الجن، وإنما لبس عليهم بما شاهدوه من ظاهر تلك الأحوال، ومن يضلل فما له من هاد"([3]).ولذا فبعد وصف القرآن الكريم للرسول المُلْقِي، والرسول المُلْقَى عليه القرآن بصفاتهما اللائقة التي تزيل وطأة الشبهة المستحكمة لكل ذي عقل – نفى طروءَ تدخلٍ خارجيٍ يُضَيِّعُ على المَلَكعليه السلام تأدية أمانته، وعلى الرسولﷺ تبليغ وحي ربه، ولا يكون ذلك في الإنس لأنهم أضعف من أن يحصل منهم التدخل؛ إذ حوكموا إلى قوانينهم

([1]) انظر: التحرير والتنوير ١٥٧/٣٠، مرجع سابق .

([2]) النهاية في غريب الحديث ٢١١/٣، ولم يعثر الباحث على مخرج الحديث بهذا اللفظ بعد لأي .

([3]) مقدمة ابن خلدون ص٩٢، مرجع سابق .

ومواضعاتهم فعجزوا، وذاك إذعانٌ للقرآن الكريم(١)، فالتدخل الخارجي لا يكون إلا من الجن . ودفع هذا العامل يكون بما سبق، بالإضافة إلى الآتي:

١ – التأكيد على صدق الرؤية والاتصال الحسي بين النبي ﷺ ومعلمه الملائكي جبريلعليه السلام: وقد تمثل هذا التأكيد في عدة مظاهر تثبيتاً لقلب النبي ﷺ ، ودرءاً لتكذيب المكذبين، ووسوسة المتخرصين، وهذه المظاهر تُجْمَلُ في الآتي:

أ-**ببيان مكانة جبريل**عليه السلام عند الله سبحانه وتعالى، واستعداده الفطري والفعلي لأداء رسالة الوحي، وقد مضى تفصيل ذلك(٢) .

ب – **النفي المؤكد المتكرر** لأن يكون الوحي القرآني كلام شيطان، ذلك بأن تدخل العالم الغيبي المقابل للملائكة –وهو الشياطين– آتٍ من كونهم عالماً غيبياً، ولأنهم كذلك فطريق علمهم مصدر العلم الغيبي لا ريب–وهو النقل–حيث قال سبحانه وتعالى:﴿**وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ**﴾ "التكوير/٢٥ "، وقال في الشعراء:﴿**وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ** (٢١٠) **وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ**﴾ "الشعراء/٢١٠ –٢١١".

وكما في قوله عز وجل: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ...**﴾ "الحج/٥٢-٥٤"، ولتؤخذ هذه الآيات في سورة الحج نموذجاً لبيان عناصر هذا النفي، المزيل للشبهة المثبت لفؤاد المبلغ، ومن ثَمَّ لفؤاد أتباعه وطالبي الحق من بعده، وذلك بعد إكمال بقية بنود الدفع لهذه الشبهة حتى لا تنفصم عرى الأفكار المتسلسلة .

٢– بقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ(٢١٠)وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ(٢١١)إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ "الشعراء /٢١٠-٢١١": وفيها منعهم منعاً

---

(١) ولما نسبوا شبهتهم إلى وضع البشر، أتوا بما أضحك عليهم الصبيان ﴿**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ**﴾ "النحل/١٠٣" .

(٢) انظر: الفصل الأول ص١٤، فهو معقودٌ لذلك .

جازماً من قربان الإلقاء في القرآن، ونحو قوله ﷻ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ "التكوير/٢٥" أي: إنما هو ملَك لا مثل الذي يتراءى للكهان([1]).

٣- قوله ﷺ :(من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي)([2])، وليس منع الشيطان أن يأتي بصورة النبي ﷺ إلا لمكان خصوصية كونه مصدر نقل الوحي من بين البشر، فمصدر نقل الوحي السماوي أولى بالمنع، ولذا قال الآلوسي-رحمه الله تعالى-: "وإذا لم يتمثل مناماً؛ فلأن لا يتمثل يقظةً من بابٍ أولى، وعلله الشراح بلزوم اشتباه الحق بالباطل"([3]).

٤- ما قاله القاضي عياض -رحمه الله تعالى-:"لا يصح أن يتصور الشيطان بصورة الملَك ويُلبس عليه، واعلم أن الأمة مجتمعة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان وكفايته منه..."([4])، وقيده الشيخ إبراهيم الكوراني -رحمه الله تعالى-:بأن لا يلبس عليه تلبيساً قادحاً([5])، ولم يقع استقراءً، وقال ابن العربي:"تصور الشيطان في صورة الملَك ملبساً على النبي ﷺ كتصوره في صورة النبي ملبساً على الخلق"([6])، وقيده الكوراني بما قيد به كلام القاضي عياض، ولا يظهر لتقييد الكوراني وجه نظر؛ إذ من البدهي إن كان الشيطان لا يستطيع التصور بصورة النبي ﷺ ألا يستطيع التصور بصورة من هو أعلى منه من حيث

([1])انظر: البحر المحيط ٤٣٠/٨، مرجع سابق .

([2]) صحيح البخاري ٥٢/١، مرجع سابق .

([3])روح المعاني ٢٧٤/١٧، مرجع سابق، وهو بحثٌ طويل الذيل محله أصول الفقه، ومنه قرر العلماء أن الإلهام ليس مصدراً للأحكام عند غير النبي ﷺ . راجع نهاية السول ٤٥٧/٤، مرجع سابق، قسم الأدلة المختلف فيها، وكذلك: نثر الورود ٢/ ٢٢٥، مرجع سابق .

([4]) الشفا ١١٧/٢، مرجع سابق .

([5]) روح المعاني ٢٦٥/١٧، مرجع سابق، وأراد أن غير القادح مثله كالنسيان الطارئ كما سيأتي تقريره -إن شاء الله- في المبحث الثاني من هذا الفصل ص٢٧٥.

([6])(ابن العربي) أبو بكر محمد بن عبد الله: أحكام القرآن ٣/ ١٢٩٩، تحقيق: علي محمد البجاوي - دار الجيل- بيروت.

مكان تلقي الوحي لا من حيث الأفضلية([1])، ولذا لا يتصور أن يأتي الشيطان بصورة ملَك؛ إذ لا تعرف حقيقة صورة الملَك، فضلاً عن رب العزة ﷻ([2]).

فإن اعتُرِض بأنه: قد عرف النبي ﷺ الهيئة الحقيقية لجبريل عليه السلام ، فلا يمتنع مجيء الشيطان بها، **فالجواب:** يمتنع مجيئه من باب القياس الأولوي على النبي ﷺ كما سبق .

٥-ومما يُدْفَع به توهم الإلقاء الشيطاني في لفظ القرآن الكريم: **فردانية الملَك الموكل بالوحي**، وهو جبريل عليه السلام، فليس ثم ملك آخر يأتي إلى النبي ﷺ إلا عبره . وقد تقدم هذا([3]) .

ومن أعظم مقتضياته المنهجية: أَمْنُ أن يأتي الشيطان متقمصاً شخصية الملَك، ويزعم أنه ملك...فيصدق لعدم اطلاع النبي ﷺ على كامل العالَمَين الغيبين الآخرين، ولذا فالصحيح الذي لا لبس فيه أنه لم يقترن به ملكٌ آخر غير جبريل عليه السلام كما مضى([4]).

([1]) فلا يرد على الكلام هنا بحث مسألة تفضيل الملائكة والبشر، وانظرها في: شرح العقيدة الطحاوية ص٣٠١، مرجع سابق .

([2]) ويكثر في أحاديث القُصَّاص المتأخرين عن القرون الفاضلة ذكرٌ لرؤية الله ﷻ ...وليس القَصَّاص مصدراً من مصادر المعرفة في هذا الباب، وانظر كلام الكوراني بإسهاب في: روح المعاني ٢٦٩/١٧، مرجع سابق .

([3]) راجع: المبحث الرابع من الفصل الأول ص٤٠.

([4]) وتذكر بعض الأخبار أنه قد قُرِن به ملكٌ آخر غير جبريل عليه السلام، ففي الطبقات الكبرى ١٩٠/١، مرجع سابق، عن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أُنزِلت عليه النبوة، وهو ابن أربعين سنة، وكان معه إسرافيل ثلاث سنين، ثم عُزِل عنه إسرافيل، وقُرِن به جبريل عشر سنين بمكة، وعشر سنين مهاجره بالمدينة، فقبض رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة .قال محمد بن سعد -رحمه الله تعالى-:"فذكرت هذا الحديث لمحمد بن عمر - يعني الواقدي -، فقال: ليس يعرف أهل العلم ببلدنا أن إسرافيل قُرِن بالنبي ﷺ وإن علماءهم، وأهل السيرة منهم يقولون: لم يقرن به غير جبريل عليه السلام من حين أنزل عليه الوحي إلى أن قبض ﷺ" .

ويكفي في الدلالة على بطلانها: قصة عبد الله بن سلام رضي الله عنه حين سأل اليهود رسول الله ﷺ عن صاحبه من الملائكة، فأخبره أنه جبريل عليه السلام، ولو كان ثم متسعٌ لذكر غيره لذكره لنفرة يهود من جبريل عليه السلام، ولا يعني هذا أن

فإن اعتُرِض بما أورده ابن الأثير -رحمه الله تعالى- في النهاية؛ إذ قال: "وفيه -أي في الحديث-(يَأتيني أنْحاءٌ من الملائكة) أي ضُروبٌ منهم، واحدُهم نَحوٌ يعني أن الملائكة كانوا يَزُورُونه سِوى جبريل عليه السلام"(١)، فهذا يدل على تعدد الملائكة الذين يأتون النبي ﷺ.

فالجواب: هذا الحديث رواه ابن خزيمة من حديث أبي سعيد رضي الله عنه وفيه: "...وقعنا في تلك البقلة الثوم، فأكلنا أكلاً شديداً -قال- وناس جياع، ثم قمنا إلى المسجد، فوجد رسول الله الريح، فقال: (من أكل من هذه الشجرة الخبيثة فلا يقربنا في مسجدنا) فقال الناس: حرمت حرمت . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: (يا أيها الناس إنه ليس لي تحريم ما أحل الله، ولكنها شجرة أكره ريحها، وإنه يأتيني أنحاءٌ من الملائكة فأكره أن يشموا ريحها)(٢)، فالشأن أولاً في صحته، وقد سكت عليه ابن حجر في التلخيص الحبير مع أن أورده عَرَضَاً لا غَرَضَاً، وثانياً: لا مراء في أنه كان يأتيه غير جبريل عليه السلام لكن مدار النزاع في أنه كان يأتيه من يأتيه من الملائكة دون واسطة جبريل عليه السلام فمن زعم ذلك فليبرز الدليل، فإنه قاطعٌ للتأويل، وتقدم ما يشير لتعريف جبريل عليه السلام النبي ﷺ بالملائكة الذين يأتونه(٣)، كقوله (فنزل منه ملك لم ينزل ...)، وقوله (وأنا جبريل، وهذا ميكائيل)(٤)...**وسِرُّ هذا الامتناع عن مجيء الملائكة دون تعريف جبريل عليه السلام بهم:** أن الملائكة عالَمٌ غيبيٌ كذلك الشياطين، وقد جعل الله عز وجل لكلٍ قدرةً على التصور والتشكل، وما قامت الدلائل على ملائكية غير جبريل عليه السلام عند رسول الله ﷺ إذ استقر في قلبه العلم اليقيني على مَلَكيته بعد أن لم يكن كذلك أول لقاء، فصار وسيطه إلى العالم الغيبي حتى لا يختلط عليه المَلَك بالشيطان .

لا زائر له من الملائكة سوى جبريل عليه السلام، بل تأتيه الملائكة لكن وسيطه في التعرف عليهم جبريل عليه السلام كما تقدم في الفصل الأول من هذه الدراسة ص٤٣، ونفى الآلوسي -رحمه الله تعالى- في روح المعاني٢٦٣/١٩، مرجع سابق صدق اقتران إسرافيل عليه السلام في روح المعاني، فقال: "وذلك لم يثبت أصلاً ".

(١) النهاية في غريب الأثر ٣٠/٥، مرجع سابق .

(٢) رواه ابن خزيمة ٣٤٥/٢، مرجع سابق .

(٣) راجع: الفصل الأول من هذه الدراسة خصوصاً ص٤٣ .

(٤) صحيح البخاري ٤٦٦/١، مرجع سابق .

فرع: تحليل آيات سورة الحج:

وهي قوله ﷻ ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ(٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ "الحج /٥٢ -٥٤".

تتجلى العناصر التي تؤخذ من هذه الآيات رداً لشبهة قذف الجن بما يلي:

أ – **سُنية هذه الشبهة في الأمم**: فهي سنةٌ ماضيةٌ من سنن الله ﷻ فيمن خلا ومن تلا، وذلك أنه لم يسلم نبيٌ من الأنبياء، ولا رسولٌ من الرسل من محاولة قذف الشيطان في سعيه الحثيث لأسلمة الأمة لرب العالمين، فهي شنشنة الأمم الظالمة، وعادة فعل الشيطان، وذا معنى قوله ﷻ ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ**﴾، فقوله ﴿**نَبِيٍّ، رَسُولٍ**﴾ نكرةٌ في سياق النفي فأفادت العموم، ثم أُكّد عمومها ثانياً بحرف الجر الزائد، فـ (من) مزيدةٌ لاستغراق الجنس، فصارت نصاً مؤكّداً للعموم، ثم أُكّد ذلك ثالثاً من حيث شمول ذلك لأصناف المكلفين من الله ﷻ بإصلاح أمور قومهم سواء كانوا أنبياء أو رسل(١)، ثم أُكّد ذلك رابعاً من القصر المستفاد من النفي والاستثناء، فهو قصر موصوفٍ على صفةٍ، وهو قصرٌ إضافيٌ، أي دون أن نرسل أحداً منهم في حال الخلو من إلقاء الشيطان ومكره(٢)، والآية مسوقةٌ لتسلية النبي ﷺ بأن السعي في إبطال الآيات أمر معهود، وأنه لسعي مردود(٣) .

---

(١) اختُلِفَ في الفرق بين النبي والرسول على أقوال: من أظهرها أن الرسول من جاء بشريعة جديدة ناسخة، والنبي من جاء مجدداً للشريعة السابقة . راجع: التحرير والتنوير ١٧ /٢٩٦، روح المعاني ٢٥٦/١٧، تفسير أبي السعود ٣٥/٤ فتح القدير ٥٧٧/٣مجموع فتاوى شيخ الإسلام٣٦٥/٣، مراجع سابقة .

(٢) التحرير والتنوير ٢٩٩/١٧، مرجع سابق .

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٩٩/١٧، مرجع سابق، وروح المعاني ٢٥٧/١٧، مرجع سابق .

ويرى المتأمل في الآية أن هذا التتابع للمؤكدات من أعظم وسائل ترسيخ اليقين بكلام رب العالمين؛ إذ يقع في فؤاد المتحمس استلزام أن تنقطع أفئدة المعاندين عن إظهار العناد على الأقل في كلام الله ﷻ ، إما لضرورة غيرة الله ﷻ على كلامه، أو لضآلة مكرهم بالغاً ما بلغ إزاء جبروت الله ﷻ...فتتالت المؤكدات إمعاناً في ترسيخ سنن الله ﷻ الخاصة بهذه الدار التي لا تزن عند الله ﷻ جناح بعوضة([1]) .

ب- **الوصف الدقيق لهيئة إفساد الشيطان عقول القوم وقلوبهم** عندما يريد الأنبياء إصلاحهم: إذ إن إصلاح الناس أمر عزيزٌ عسير المنال فسماه الله ﷻ أمنية([2])، ثم إن الأنبياء عند ممارسته يضادهم الشيطان في سعيه الحثيث لإعدام الخير، أو الحيلولة بينه وبين الناس يلقي وسوسة في نفوس الناس تفسد محاولة الإصلاح، ورشح استعارة الإلقاء -ويكون للأمر المحسوس- للأمر غير المشاهد شِدَّةُ فعله، وقوة تأثيره حتى كأنه أمرٌ محسوسٌ، وتقدير الآية: أدخل الشيطان في نفوس الأقوام ضلالات تفسد ما قاله الأنبياء من الإرشاد، **ومعنى إلقاء الشيطان في أمنية النبي والرسول**: إلقاء ما يضادها، كمن يمكر فيلقي السم في الدسم، فإلقاء الشيطان بوسوسته: أن يأمر الناس بالتكذيب والعصيان، ويلقي في قلوب أئمة الكفر مطاعن يبثونها في قومهم، ويروج الشبهات بإلقاء الشكوك التي تصرف نظر العقل عن تذكر البرهان، وذلك هو الصبر على الآلهة المذكور في قوله ﷻ **﴿وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾**"ص/٦"، وقال الآلوسي-رحمه الله تعالى-: "إذا قرأ شيئاً من الآيات ألقى الشيطان الشبه والتخيلات فيما يقرؤه النبي ﷺ على أوليائه ليجادلوه بالباطل، ويردوا ما جاء به كما قال ﷻ **﴿...وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ...﴾** "الأنعام/١٢١"، **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ...﴾** "الأنعام/١١٢"([3]).

([1]) إشارةً إلى الحديث المشهور، أخرجه: البخاري ١٧٥٩/٤، مرجع سابق، ومسلم ٢١٤٧/٤، مرجع سابق .

([2]) عند الآلوسي٢٥٧/١٧: "التمني لغاية التقدير"، قال: "والأمنية الصورة الحاصلة في النفس من التمني" .

([3]) روح المعاني ٢٥٧/١٧، مرجع سابق .

جـ- الإلقاء الشيطاني معنويٌ وليس لفظياً: وذلك ببث الشبهات، وتضخيم الوساوس، وينفى الإلقاء اللفظي لضعف مقدرة الجن في حالتهم الغيبية عن إظهار ألفاظ يسمعها البشر في الحالات المعتادة(١)، لا إذا تمثلوا في هيئة إنسية، فإن فعلوا فالإلقاء اللفظي عليهم أعز وأعسر من حيث خضوعهم لقوانين الطبيعة البشرية، وهاهم أشد الناس عناداً لرسول الله ﷺ لم يستطيعوا فعل ذلك مع حرصهم كل الحرص .

وإذ قد تقرر أن الإلقاء معنويٌ، فلا مكان له في القدرة على الخلط في ألفاظ القرآن، ويُرَشَحُ هذا بقوله ﷻ **﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ(٤٤)لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾** "الحاقة /٤٤-٤٥".

د- الوسائل الوقائية والاجتثاثية لإلقاء الشيطان المعنوي في عقول الناس:

١- المعية العلمية الإلهية الحاكمة: إذ ليست الساحة للشيطان ليصول فيها كما يشاء، بل وجوده فيها طارئٌ نسبيٌ إذا ما قورن بعلم الله ﷻ، ثم إن الأمر كله لله ﷻ فهو بحكمته وتدبيره ﷻ مَكَّن الشيطان من إلقاء تلك الشبهة، ثم في حكمته في أسلوب إزالة آثاره، ومن هنا يظهر سر التذييل بقوله ﷻ **﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾**"الحج/٥٢"، كما أن إظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار دالٌ على التأكيد على إرادة ذلك، ووصفه ﷻ بوصف (فعيل) مبالغة في العلم بكل ما من شأنه أن يُعْلَم، ومن جملته ما صدر عن العباد من قول وفعل، عمداً أو خطأ(٢).

٢ - إزالة آثار الشبهة الشيطانية بالقدرة الإلهية المباشرة: وذلك إذا تعلق الأمر بكتاب الله ﷻ، فالله ﷻ بهديه وبيانه ينسخ ما يُلْقي الشيطان، أي يزيل الشبهات التي يلقيها الشيطان ببيان الله ﷻ الواضح، ويزيد آيات دعوة رسله بياناً، وذلك هو إحكام

---

(١) أما في غير الحالات المعتادة فقد يستطيع الشيطان إسماع الإنسان، انظر: رفاعي سرور: عندما ترعى الذئاب الغنم ص١١٤، ط٦١٤١٢هـ-١٩٩٢، مكتبة الحرمين للعلوم النافعة .

(٢) تفسير أبي السعود ٣٤/٤، مرجع سابق .

آياته، أي تحقيقها وتثبيت مدلولها وتوضيحها بما لا شبهة بعده إلا لمن رين على قلبه([1])، قال الآلوسي -رحمه الله تعالى-: "فيبطل ما يلقيه من تلك الشبه، ويذهب به بتوفيق النبيﷺلرده، أو بإنزال ما يرده"([2]).

٣- إحكام اللهﷻ آياته: فيزيد ﷻ آيات دعوة رسله بياناً، **وإحكام الآيات أهم من نسخ ما يلقي الشيطان؛ إذ بالإحكام يتضح الهُدى، ويزداد ما يلقيه الشيطان نسخاً**، وصيغة المضارع في الفعلين للدلالة على الاستمرار التجددي .

٤ – بيان حكمة اللهﷻ من تمكين الشيطان من ترويج شبهاته، حتى يبقى المؤمنون على ثقةٍ بمعية اللهﷻ، وذلك ما بينه في قولهﷻ **﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾**؛ مما يزيد إيمان المؤمنين، وإخبات المخبتين .

٥ - تكفل اللهﷻ بالهداية الدائمة للمؤمنين، وبعصمة نبيهم من الخطأ في الأمر المعنوي الحال فضلاً عن الأمر اللفظي الدائم التلاوة، وعصمة مجموع الأمة عن الخطأ...يُبْعِد التَمَكّنِ من قذف أي تخيلٍ يحاوله الشيطان في ما يتلوه النبيﷺ من الوحي؛ ومن هنا كان التذييل بقولهﷻ **﴿...وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾**، ولا يقدح في ذلك بقاء الشبهة تفعل فعلها في نفوس الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم؛ إذ لا يزال ترددهم باقياً إلى أن تأتيهم الساعة بغتة، أو يأتيهم عذاب يوم عقيم، ولا يخل شكهم هذا بالوثوق بالقرآن عند الذين آمنوا والذين أوتوا العلم .

([1]) انظر: التحرير والتنوير ٢٩٩/١٧، مرجع سابق، وراجع لتفصيل خارطة عمل الشيطان: عندما ترعى الذئاب الغنم ص٢٣، مرجع سابق .

([2]) روح المعاني ٢٥٧/١٧، مرجع سابق .

فائدة: واستبعاد كثيرٍ من العلماء وقوع الشبهة اللفظية في القرآن الكريم دالٌ على مدى أهمية الألفاظ في مقابل المعاني في القرآن الكريم، وذلك لأن التحريف إن وقع في اللفظ فقد وقع في أصل المعنى .

وبهذا التأويل يظهر مقدار جلالة السلك البديع الذي انتظمت فيه هذه الآيات([1])، ووهَى ما أُولِع به بعض المفسرين الذين يميلون إلى الإكثار من الغرائب من إيراد قصة الغرانيق...مع أنَّ ضعفها واضح سنداً ومتناً([2])، فلا يشتغل البحث بإيرادها، مكتفياً بالإحالة على موارد ذلك في الهامش([3]).وليس في هذا اتهامٌ للمفسرين الذين أوردوا هذه القصة؛ لأنه ليس كلهم أورد هذه القصة، ووقوع بعضهم في الغلط

([1]) وهو التفسير الذي رجحه بل فسر به هذه الآيات عددٌ من المفسرين منهم :الطاهر بن عاشور ٢٩٩/١٧، مرجع سابق، والآلوسي ٢٥٧/١٧، مرجع سابق، وأبو حيان ٣٨٢/٦، مرجع سابق، ونحوه أبو السعود ٣٤/٤، مرجع سابق .

([2]) على أنه يقال تنـزلاً: لو صحت هذه القصة فإنه يسري عليها ما ذكر هاهنا من وسائل الاجتثاث للأمر المعنوي، إذ سريانه على الأمر اللفظي أولويٌ، كما يكون الجواب عنها بما ذكر قبل وبعد، وبما أجاب به عنها من قالوا بصحتها.

([3]) انظر: التحرير والتنوير ٣٠٦/١٧، مرجع سابق، وردها البيهقي وقال: "هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل"، ورده القاضي عياض في الشفا ١١٧/٢، مرجع سابق، وقال: "وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيحٍ وسقيم"، وقال الآلوسي ٢٦٣/١٧، مرجع سابق: "وفي كتاب (الأتقياء) لأبي منصور الماتريدي: أن قوله (تلك الغرانيق العلى) من جملة إيحاء الشيطان إلى أوليائه من الزنادقة حتى يلقوا بين الضعفاء وأرقاء الدين، ليرتابوا في صحة الدين، وحضرة الرسالة بريئةٌ من هذه الرواية"، وذكر الآلوسي أوجه ردها، بعد أن فسرها بما يشبه التفسير الذي ارتضاه الباحث، وأورد هذه القصة: ابن حجر في فتح الباري ٤٤١/٨، مرجع سابق كالمؤيد لثبوت أصلها؟! وقال: "وكلها سوى طريق سعيد بن جبير إما ضعيفٌ، وإما منقطعٌ، لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً"، ....ورد على عياض وابن العربي إبطالهما لأصل القصة، وقال في نقدهما لها: "وجميع ذلك لا يتمشى على القواعد، فإن الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها دل ذلك على أن لها أصلاً، وقد ذكرت أن لها ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح، وهي مراسيل يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل، وكذا من لا يحتج به لاعتضاد بعضها ببعض...ثم تأول من ظاهِرِها –بعد أن سلم بأن لها أصلاً– ما يستحيل كقولهم فيها: ألقى الشيطان على لسانه... وهذا فيه غرابةٌ من حيث عدم تطبيق موازين المتن بعد تطبيق موازين السند، والقصة أوردها ساكتاً بل مقرراً السيوطي –الذي يجعل ابن حجر مثله الأعلى– في شرح سنن ابن ماجة، وابن الأثير في النهاية ٣٦٤/٣، وابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث ص١٧٩، مرجعان سابقان، قال الآلوسي –رحمه الله تعالى–: "وذهب إلى صحة القصة أيضاً خاتمة المتأخرين الشيخ إبراهيم الكوراني ثم المدني"، ثم قال تعقيباً على كلام الكوراني: "لكن إثبات صحة الخبر أشد من خرط القتاد...وتأويل جميع الظواهر الكثيرة لقول شرذمةٍ قليلةٍ بصحة الخبر المنافي لها مع قول جمٍ غفيرٍ بعد الفحص التام بعدم صحته مما لا يميل إليه القلب السليم ولا يرتضيه ذو الطبع المستقيم ... –ثم قال–:وتوسط جمعٌ في أمر هذه القصة فلم يثبتوها كما أثبتها الكوراني، ولم ينفوها بالكلية، وإليه أميل" وقال ابن كثير٢٠٤/٣، مرجع سابق: "ولم أرها مسندةً بوجهٍ صحيحٍ" . وقال الشوكاني في فتح القدير ٥٧٧/٣، مرجع سابق: "ولم يصح شيء من هذا، ولا ثبت بوجهٍ من

يوجبه النظر الشرعي والعقلي، **وولَعُ البعض في فترة بالغرائب أمرٌ متقررٌ لدارسي علم تأريخ العلوم، ومحاولة العدو الدسَّ في عقائد المسلمين فضلاً عن تراثهم في المجالات الأُخَر، قد بدأ في فجر الإسلام، على أنه لم يستطع أن يمس لفظ القرآن، ولذا حاول الإكثار من وضع الآثار، والأخبار التي يتلقفها فاضلٌ وغيره، ثم تَتَناقَل في حدود الغفلة الأصلية أو الطارئة عن موازين نقل الأخبار الصارمة**([1]).

رابعاً: دفع التخيل بشبهة السحر:

هذه مجموعة أسس بين يدي هذه المسألة:

١ - لم ترتفع صبغة البشرية عن النبي ﷺ بعد نبوته بل ظلت هي الأصل فيه، ولكنه كان يرتفع عن الصبغة البشرية في أوقات محدودة بتهيئة خاصة من اللهﷻ له فيما يتميز فيه عن البشر وهو الوحي، وهذا معلومٌ من الدين بالضرورة، ومن أدلة ذلك قوله ﷻ **﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾** "الكهف/١١٠"، ثم بين الجزئية التي تميز بها **﴿يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾**، وكقولهﷺ (فمن رغب عن سنتي فليس مني)([2]) في معرض

بوجهٍ صحيح" . وقال الشوكاني في فتح القدير ٥٧٧/٣، مرجع سابق: "ولم يصح شيء من هذا، ولا ثبت بوجهٍ من الوجوه، ومع عدم صحته بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله سبحانه، قال تعالى **﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ(٤٤)لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ(٤٥)ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾** "الحاقة/٤٤-٤٦"، وقوله**﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى(٣)إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾** "النجم/٣-٤"، وقوله **﴿وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾** "الإسراء/٧٤"، فنفى المقربة للركون فضلاً عن الركون، وقال إمام الأئمة ابن خزيمة: إن هذه القصة من وضع الزنادقة "، وقال أبو حيان ٣٨٢/٦، مرجع سابق ناقداً إيراد المفسرين لها: "وقد ذكر المفسرون في كتبهم ما لا يجوز وقوعه من آحاد المؤمنين منسوباً إلى المعصوم صلوات الله عليه...وهي قصةٌ سئل عنها محمد بن إسحاق جامع السيرة فقال: هذا من وضع الزنادقة، وصنف في ذلك كتاباً"، وقد ألف الشيخ الألباني كتاباً في هذا الباب هو: "نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق".

([1]) وأين يستغرب ذلك وقد درجت مجموعةٌ غير قليلةٍ من أفاضل المفسرين على إيراد خبر فضائل القرآن الشهير المنسوب إلى أبي ابن كعب رفعه، مثل: الكشاف للزمخشري، وكتفسير البيضاوي، والخازن .

([2]) صحيح البخاري ١٩٤٩/٥، مرجع سابق .

الإنكار على من عد طبعه مختلفاً عن طباع البشر . ولولا هذه الحقيقة لما كان محطاً للاقتداء ﷺ .

٢ - وإذا كانت هذه مسَلَّمةً دينية؛ فإن النبي ﷺ يعتريه ما يعتري البشر من المرض والنصب والوصب والهم والحزن، بما لا يقدح في نبوته، ولا يمس ما أمر به أن يبلغه، وهذا داخل في عموم قوله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ "المائدة/٦٧" .

٣ - ليس مقام البحث مقاماً صالحاً لمناقشة مسألة سحر النبي ﷺ من حيث الإثبات والنفي، وقصارى القول في هذا المقام أن تُدحض شبهة تأثير السحر في الوحي القرآني على قول من يثبت أن النبي ﷺ قد سحر([1]) .

٤ - من أثبت ذلك يتفق مع النفاة في عصمة النبي ﷺ وهو يلقي الوحي الإلهي قرآناً كان أو غيره من تطرق تأثير السحر عليه، واستدلوا بما رواه البخاري:عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: سُحِر النبي ﷺ حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، حتى كان ذات يومٍ دعا ودعا، ثم قال: (أشعرتِ أن الله أفتاني فيما فيه شفائي، أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي فقال أحدهما للآخر: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب . قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم . قال: في ماذا؟ قال: في مشطٍ، ومشاطةٍ، وجُفِّ طَلْعَةِ ذَكَرٍ . قال: فأين هو؟ قال: في بئر ذروان). فخرج إليها النبي ﷺ ثم رجع، فقال لعائشة حين رجع: (نخلها كأنه رؤوس الشياطين . فقلت:استخرجته؟ فقال: لا، أما أنا فقد شفاني الله، وخشيت أن يثير ذلك على الناس شراً ثم دفنت البئر)([2]).

وذكر الإسماعيلي مدة ذلك فروى: أنه أقام أربعين ليلة، وعند أحمد: ستة أشهر، ويمكن الجمع بأن تكون الستة أشهر من ابتداء تغير مزاجه والأربعين يوماً من استحكامه([3]).

([1]) انظر في هذا الباب: تأويل مختلف الحديث ص١٨٢، مرجع سابق .

([2]) صحيح البخاري ١١٩٢/٣، مرجع سابق، وانظر: تفسير ابن كثير ٥٧٥/٤، مرجع سابق .

([3]) فتح الباري ٢٢٣/١٠، مرجع سابق .

٥ – السحر الذي وقع عليه ﷺ تسلط على جسده فقط، كما كانت الحمى تتسلط عليه، والسم الذي سمته به يهود...وتَسَلُّطِ السحر على جسده ظهر في عدة مظاهر، منها:

أ – **كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله:** كما في هذه الرواية، وصُرِّح بمدلول ذلك في رواية أخرى للبخاري، ولفظها: (حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن)، وفي لفظ: (أنه يأتي أهله ولا يأتيهم)([1])، قال المازري: "وهذا كثيراً ما يقع تخيله للإنسان في المنام، فلا يبعد أن يخيل إليه في اليقظة".

ومعنى (يرى)، قال الداودي: (يرى) بضم أوله: أي يظن، وقال ابن التين: ضبطت يرى بفتح أوله، وهو من الرأي لا من الرؤية، فيرجع إلى معنى الظن([2]).

ب – **التسلط على بصره: ففي** مرسل يحيى بن يعمر عند عبد الرزاق: سُحِر النبيﷺ: (حتى أنكر بصره)، وعنده في مرسل سعيد بن المسيب: (حتى كاد ينكر بصره)([3]). قال عياض -رحمه الله تعالى-:"فظهر بهذا أن السحر إنما تسلط على جسده، وظواهر جوارحه لا على تمييزه ومعتقده"([4]).

جـ – **نوع مرضٍ جسدي:** فإن صون النبي ﷺ من الشياطين لا يمنع إرادتهم كيده فقد جاء في الصحيح: (أن شيطاناً أراد أن يفسد عليه صلاته فأمكنه الله جل جلاله منه)، فكذلك السحر لم ينله من ضرره ما يدخل نقصاً على ما يتعلق بالتبليغ، بل هو من جنس ما كان يناله من ضرر سائر الأمراض من ضعفٍ عن الكلام، أو عجزٍ عن بعض الفعل، أو حدوث تخيلٍ لا يستمر، بل يزول ويبطل الله سبحانه وتعالى كيد الشياطين، واستدل ابن القصار على أن الذي أصابه كان من جنس المرض بقوله في آخر الحديث: (أما أنا فقد شفاني الله)، وفي الاستدلال بذلك نظر لكن يؤيد المدعي أن في رواية عمرة عن عائشة عند البيهقي في الدلائل: (فكان

([1]) صحيح البخاري ٥/٢١٧٥، مرجع سابق .

([2]) انظر ما سبق في: فتح الباري ١٠ /٢٢٧، مرجع سابق .

([3]) انظر في تخريج الآثار السابقة: فتح الباري ١٠ / ٢٢٦، مرجع سابق .

([4]) الشفا ٢/١٤٧، مرجع سابق .

يدور، ولا يدري ما وجعه)، وفي حديث ابن عباس رضي الله عنه عند ابن سعد: مرض النبي ﷺ وأخذ عن النساء والطعام والشراب، فهبط عليه ملكان... لحديث، قال المازري: "أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث، وزعموا أنه يحط منصب النبوة ويشكك فيها، قالوا: وكل ما أدى إلى ذلك فهو باطل، وزعموا أن تجويز هذا يعدم الثقة بما شرعوه من الشرائع؛ إذ يحتمل على هذا أن يخيل إليه أنه يرى جبريل عليه السلام وليس هو ثم، وأنه يُوحَى إليه بشيءٍ، ولم يوح إليه بشيء، قال المازري: وهذا كله مردودٌ؛ لأن الدليل قد قام على صدق النبي ﷺ فيما يبلغه عن الله عز وجل، وعلى عصمته في التبليغ، والمعجزات شاهدات بتصديقه، فتجويز ما قام الدليل على خلافه باطلٌ، وأما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا التي لم يبعث لأجلها، ولا كانت الرسالة من أجلها فهو في ذلك عرضةٌ لما يعترض البشر كالأمراض، فغير بعيدٍ أن يخيل إليه في أمر من أمور الدنيا ما لا حقيقة له مع عصمته عن مثل ذلك في أمور الدين"([1]).

وقال ابن قتيبة: "وأما قول الله تعالى ﴿**لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ**﴾ "فصلت/٤٢" فإنه جل جلاله لم يرد بالباطل أن المصاحف لا يصيبها ما يصيب سائر الأعلاق والعروض، وإنما أراد أن الشيطان لا يستطيع أن يُدْخِلَ فيه ما ليس منه قبل الوحي وبعده([2]).

هذا كلام الله الحق...وذا رسول الله ﷺ المبلغ لكلامه...وذا حفظ الله -تعالى ذكره- لكلامه...وروح القدس جبريل عليه السلام هو الواسطة؟ فأين -في الدنيا- كهذا، وذا، وذا...؟

وقال الله: قد أرسلت عبداً ..... يقول الحق ليس به خفاءُ
وقال الله: قد يسرت جنداً ..... هم الأنصار عرضتها اللقاءُ
وجبريل رسول الله فينا.....وروح القدس ليس له كفاءُ

([1]) فتح الباري ١٠/٢٢٧، مرجع سابق.

([2]) تأويل مختلف الحديث٣١٠، مرجع سابق.

المبحث الثاني:
دفع العوامل الداخلية (الذاتية):

عالج القرآن الكريم العوامل الإنسانية الذاتية التي تؤدي إلى تغيير اللفظ كإجراء ضروري للحفاظ على نصه سالماً من يمسه التغيير في أدائه فضلاً عن جوهر لفظه...، وكانت معالجة الكتاب الكريم لهذه المشكلة مُبكِّرَة، تناسب تبكيرها مع حدوث التلقي الأول للقرآن الكريم في الأرض من جبريل إلى النبي ﷺ ويأخذ المبحث نموذجين ينتميان لهذه العوامل، للنظر في كيفية معالجة القرآن الكريم لهما في تلقي النبي ﷺ من جبريل ألفاظ القرآن الكريم، ويشكل النموذجان مطلبي هذا المبحث، وهما:

المطلب الأول: معالجة مشكلة النسيان .

المطلب الثاني: معالجة مشكلة التهمة بقصور العاطفة البشرية والتفكير البشري .

المطلب الأول: معالجة مشكلة النسيان:

النسيان: ضد الذكر والحفظ([1])، وهو عدم خطور المعلوم السابق في حافظة الإنسان برهة، أو زماناً طويلاً([2])، وقال الزركشي -رحمه الله تعالى-: "قيل السهو: الذهول عن المعلوم، وظاهر كلام اللغويين ترادفه مع النسيان"([3])، وقال ابن قتيبة -رحمه الله تعالى-: "النسيان ضد الحفظ، كقوله تعالى: ﴿...**فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ...**﴾ "الكهف/٦٣"، وقال: ﴿...**لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ...**﴾ "الكهف/٧٣"، والنسيان الترك، كما قال ﷻ: ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ فَنَسِيَ...**﴾ "طه/١١٥" أي فترك، وقوله ﴿**فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا...**﴾ "الجاثية/٣٤" أي بما تركتم الإيمان بلقاء هذا اليوم﴿...**إِنَّا نَسِينَاكُمْ...**﴾ أي تركناكم، وقوله ﴿...**وَلا تَنْسَوا الفَضْلَ بَيْنَكُم...**﴾"البقرة/٢٣٧" أي ولا تتركوا ذلك([4]).

([1]) انظر: لسان العرب١٤/١٣٢، مرجع سابق .

([2]) التحرير والتنوير ٣٠/٢٨٠، مرجع سابق .

([3]) البحر المحيط ١/٨٠، مرجع سابق .

([4]) تأويل مشكل القرآن ص٣٩٠، مرجع سابق .

فقد جعل ابن قتيبة **النسيان في حقيقته اللغوية نوعين** بعد الشيوع:

ضد الحفظ، وهو المعنى الأصلي، **والترك**([1])الذي يجعل المتروك كالمنسي، فهو تركٌ كليٌ فقد صار في حقيقته نسياناً بعلاقة الغياب، إلا أن الغياب في النسيان مؤقتٌ، والغياب في الترك كليٌ من حيث التذكر للمنسي لا من حيث الوجود في الحافظة، وعند إضافة مفهوم كلام اللغويين إلى ذلك نجد أن النسيان لا يكون إلا في شيءٍ معلومٍ .

ويكمن دفع هذا العامل في لفظ القرآن، وأدائه عن تلقي الرسولﷺ فيما تلقاه من جبريلعليه السلام في البنود التالية:

١ - **قد اتضح من خلال ما سبق أن معالجة هذه المشكلة ظهر من أول نزول القرآن الكريم**، كما مر ذلك عند تحليل حديث المعالجة وغيره، فقد كانت المعالجة لقضية النسيان في المرحلة المكية...ولبدهية هذه الحقيقة استدل على أن سورة الأعلى مكية بورود ما يدل على معالجة مشكلة النسيان فيها، وهو قولهﷻ **﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى﴾** "الأعلى/٦"؛إذ إن ما اشتملت عليه من المعاني يشهد لكونها مكية، "وحسبك بقوله تعالى **﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى﴾**"([2])، **فقد صارت الآيات المعالِجة لهذه المشكلة مقياساً لمعرفة المكي والمدني** .

٢ - **من أبرز الآيات التي عالجت هذه المشكلة آيات سورة الأعلى**، وكتقريرٍ للحقيقة السابقة فسورة الأعلى ثامنةٌ بحسب ترتيب النزول عند جابر بن زيد، وروي عن ابن عباس وعكرمة والحسن –رضي الله تعالى عنهم– أنها سابعة([3]).

٣ - **لأن مشكلة النسيان مشكلة فطريةٌ تتعلق بخلق الإنسان فقد ربط القرآن الكريم** بينها وبين القوانين التي وضعها خالق الإنسان في الكون، ثم في الإنسان، ومن هنا ندرك

([1]) وانظر فتح الباري ٩/٨٠، مرجع سابق .

([2]) التحرير والتنوير ٣٠ /٢٧٢، مرجع سابق .

([3]) انظر: الإتقان ص٢١، مرجع سابق .

سراً من أسرار الاستهلال في سورة الأعلى بجذب النظر إلى الآيات الكونية، وخلق الله ﷻ لها، ثم تحكمه بها، فمتى ما شاء اطردت تلك القوانين، ومتى ما شاء منعها من الاطـــراد، وعطلها عن السريان؛ فإذا أراد الإنسان التخلص من مشكلة النسيان، فليسبح باسم ربـــه الأعلى الذي بيده مقاليد أمر الخلق، وأسبابه، وقوانينه، والذي تعالى عن أن يحكمه شـيء، أو يعجزه أمر؛ إذ يغدو القضاء على مشكلة النسيان آيةٌ في ذاته تخالف قوانينها، القوانـين المألوفة عند البشر، وإن كانت تسير وفق قوانين أخرى في ذاتها([1])؛ وإذ هي كذلك آيـة فلا بد لتحقيقها من إذن الله ﷻ الذي يشمل أمره الابتدائي وإذنه المسـتمر﴿**وَمَـا كَـانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللهِ...**﴾ "غافر/٧٨"، والافتتاح بأمر النبي ﷺ بأن يسـبح اسم ربه بالقول، يؤذن بأنه سيلقي إليه عقبه بشارةً وخيراً له، وذلك قوله ﷻ ﴿**سَـنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى**﴾ الآيات، ففيه براعة استهلال([2])، وفيه قال القرطبي:"وهذه بشرى مـن الله تعالى، بشره بأن أعطاه آية بينة، وهي أن يقرأ عليه جبريل عليه السلام ما يقرأ عليه من الوحـي، وهو أميٌ لا يقرأ، ولا يكتب، فيحفظه ولا ينساه"([3])، "وهي بشرى لأمته مـن ورائـه، تُطَمْئِنُّ بها إلى أصل هذه العقيدة؛ فهي مـن الله ﷻ، والله كافلـها وحافظـها في قلـب نبيها"([4]).

وفي هذا تأكيدٌ على المصدرية الإلهية .

٤ - **ولإزالة أي آثارٍ تشكيكيةٍ نابعةٍ من احتمال نسيان الرسـول ﷺ** لشـيءٍ مـن الوحي، فقد قُطِّعتْ أنواط هذه المشكِّكات بتقعيدين: عامٍ وخاصٍ:

([1]) قرر الإمام الشاطبي في الموافقات أن الخوارق ليست خارجةً عن جملة قوانين الكون، وإن كانت خارجةً عن مألوف القوانين المعروفة لنا، انظر الموافقات ٣٧٤/١، مرجع سابق عند كلامه على الأحكام الوضعية .

([2]) انظر: التحرير والتنوير ٣٠ /٢٧٢، مرجع سابق .

([3]) تفسير القرطبي١٨/٢٠، مرجع سابق، ونحوه في الكشاف٢٠٤/٤، مرجع سابق .

([4]) ظلال القرآن ٣٨٩٢/٦، مرجع سابق .

فأما العام فهو: عصمة الشرع الإسلامي المطهر من غوائل النقص، والتغيير، والنسيان، **من حيث كونه شرعاً إلهياً خاتماً تكفل منزله بالحفاظ عليه، ثم من حيث كونه شرعاً ميسراً، ومن أهم أوجه تيسيره: تيسير المحافظة عليه،** ولذا قال ﷻ: **﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾** "الأعلى /٨"، **فاشتمل الكلام على تيسيرين:**

تيسير ما كُلِّفَ به النبي ﷺ أي جعله يسيراً مع وفائه بالمقصود، فمما ذكره القرطبي في تأويلها قوله: "أي نهون عليك الوحي، حتى تحفظه وتعمل به" (١).

وتيسير النبي ﷺ للقيام بما كُلِّفَ به، حيث قال الآلوسي:"**نوفقك توفيقاً مستمراً للطريقة اليسرى في كل باب من أبواب الدين، علماً، وتعليماً، واهتداء، وهداية، فيندرج فيه تيسير تلقي طريقي الوحي**"(٢)... .

فقوله ﷻ: **﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾** "الأعلى/٨":

مستعارٌ للتهيئة، والتسخير، أي نهيئك للأمر اليسير في أمر الدين، وعواقبه من تيسير حفظ القرآن لك، وتيسير الشريعة....

أو يكون المعنى: ونيسر لك اليسرى على القلب، وفي وصفها باليسرى إيماءٌ إلى أنها يسرى من حيث ذاتها، فلم يبق إلا حفظه من الموانع التي يشق معها تلقي اليسرى....

٥ - **وأما التقعيد الخاص** فهو الوسيلة التي تقضي قضاءً مبرماً على مشكلة نسيان الرسول ﷺ للقرآن الكريم بعد أن يلقيه علي جبريل عليه السلام قبل أن يبلغه، إذ تكفل الله ﷻ بتعطيل قانون النسيان في ذات الرسول ﷺ في هذه المرحلة، وفي المعجم الكبير للطبراني ما يزيد حديث ابن عباس رضي الله عنه في المعالجة إيضاحاً في هذا الموضوع، فقد قال ابن عباس رضي الله عنه : (كان النبي ﷺ إذا أتاه جبريل عليه السلام بالوحي لم يفرغ حتى يَزْمُل(٣) من الوحي، حتى يتكلم

---

(١) تفسير القرطبي ١٨/٢٠، مرجع سابق .

(٢) روح المعاني ١٩٢/٣٠، وانظر الكشاف ٢٠٤/٤، مرجع سابق .

(٣) زمل يزمل زمالاً: عدا وأسرع معتمداً على أحد شقيه رافعاً جنبه الآخر، انظر: لسان العرب ٨١/٦، مرجع سابق .

النبيﷺ بأوله مخافة أن يغشى عليه)، فقال له جبريل: لم تفعل ذلك؟ قال:مخافة أن أنسى فأنزل الله ﷻ ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى﴾"، ولذا قرر الشوكاني أن: "السهو والنسيان فيما طريقه البلاغ غير جائز"([1])، وقد سبق تعميم هذه الجزئية في عصمتهﷺ([2]).

وفي قوله ﷻ ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى﴾"، الفاعل ضمير مستتر تقديره نحن يعود على الله ﷻ، وفي ذلك فوائد:

أولها: التكفل بإقرائهﷺ، وذلك ضمان بأن يصل إلى النبي ﷺ كما أراد الله ﷻ أن يصل لا كما تتحمله قوى البشر، فإيثار وصف﴿الأعلى﴾ في هذه السورة لأنها تضمنت التنويه بالقرآن والتثبيت على تلقيه .

وثانيها: دفع فطرة النسيان الخلقي في الرسولﷺ في فترة إلقاء القرآن عليه إلى أن يبلغه، فهذا موقع البيان الصريح بوعده بأنه سيعصمه من نسيان ما يقرئه، فيبلغه كما أوحي إليه ويحفظه من التفلت عليه([3]).

وثالثها: أن التكفل بالأمرين تكفلٌ إلهيٌ مباشِرٌ ليس لجبريلعليه السلام فيه شيءٌ إلا قراءة القرآن عليه لحكمةٍ عظيمةٍ هي تثبيت مبدأ التلقين في نقل القرآن الكريم، وقد مضت الإشارة إليها([4])، أما إقراؤه بمعنى جمع القرآن في صدره، ودفع النسيان عنه في الفترة المذكورة فأمرٌ إلهيٌ محضٌ، ودليله ما سبق([5])، والضمير في قوله ﷻ ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾، وما ذكر في تحليل آيات سورة القيامة([6])، ومبدأ استشعار المصدرية الإلهية .

([1]) فتح القدير ٣/٥٧٩، مرجع سابق .

([2]) انظر: المبحث الأول من هذا الفصل ص٢٥٣.

([3]) انظر: التحرير ٣٠/ ٢٧٩، مرجع سابق .

([4]) انظر: المبحث السابع من الفصل الثالث ص١٣٥ وما بعدها .

([5]) انظر: حديث المعالجة في المبحث السادس من الفصل الثالث ص١١٣.

([6]) انظر: المبحث السادس من الفصل الثالث ص١١٦ .

فقد تعين أن قوله ﷻ ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى﴾ "الأعلى/٦" وعد من الله ﷻ بعونه على حفظ جميع ما يُوحَى إليه(١)، وافتتاح سورة الأعلى بقوله ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى(٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ "الأعلى/٢-٣" مُؤْذِنٌ بتقرير الحقيقة السابقة من حيث كمال التقرير؛ "لأن لهذين الوصفين مناسبة بما اشتملت عليه السورة، فإن الذي يسوي خلق النبي ﷺ تسويةً تلائم ما خلقه لأجله من تَحَمُّلِ أعباء الرسالة، لا يفوته أن يهيئه لحفظ ما يوحيه إليه، وتيسيره عليه، وإعطائه شريعةً مناسبةً لذلك التيسير"(٢)، وقال الإمام الآلوسي: "﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى﴾ بيانٌ لهدايته تعالى شأنه الخاصة برسوله، إثر بيان هدايته العامة لكافة مخلوقاته سبحانه، وهي هدايته لتلقي الوحي وحفظ القرآن"(٣)...أي سنقرئك فلا تنسى أصلاً من قوة الحفظ والإتقان، مع أنك أميٌ لم تكن تدري ما الكتاب، وما القراءة، ليكون ذلك لك آيةً مع ما في تضاعيف ما تقرأه من الآيات البينات"(٤).

٦- **إذا كانت آيات سورة القيامة** قد أرست أساس جمع القرآن في صدر النبي ﷺ بأن يلقيه عليه جبريل عليه السلام، وحددت له قواعد التلقين؛ فإن هذه الآيات ترسي أساس بقاء ذلك المُلْقَى إلى حين أدائه تبليغاً للناس، وإنما ابتدئ بقوله ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ تمهيداً للمقصود الذي هو ﴿فَلاَ تَنسَى﴾، وإدماجاً، للإعلام بأن القرآن في تزايدٍ مستمر، فإذا كان قد خاف من نسيان بعض ما أُوحي إليه على حين قلته؛ فإنه سيتتابع ويتكاثر فلا يخشى نسيانه، فقد تكفل له عدم نسيانه مع تزايده...والسين علامة استقبال مدخولها... فهي دالةٌ على أن الإقراء يستمر، ويتجدد...وقوله﴿...فَلاَ تَنسَى﴾ خبرٌ مرادٌ به الوعد والتكفل له بذلك(٥).

---

(١) انظر: التحرير ٣٠/ ٢٧٩، مرجع سابق .

(٢) التحرير ٣٠/ ٢٧٩، مرجع سابق .

(٣) وقريبٌ من هذا قرر الإمام الشوكاني في فتح القدير ٥٢٢/٤، مرجع سابق، والصاوي في حاشيته٤١١/٤، مرجع سابق، وتفسير أبي السعود ٥١٧/٥، مرجع سابق .

(٤) روح المعاني ١٨٨/٣٠، مرجع سابق، ولعله نقل هذه العبارات من أبي السعود ٥١٨/٥، مرجع سابق .

(٥) انظر: التحرير والتنوير ٢٨٠/٣٠، مرجع سابق، وانظر: روح المعاني ١٨٨/٣٠، مرجع سابق، فقد ذكر قولاً غريباً في معنى ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ هو تعلم النبي القراءة دون كتابة، ثم رده... وقيل: إن قوله تعالى ﴿فَلاَ تَنسَى﴾ نهي، أو خبر أريد به النهي وهو قول ضعيف مردود، انظر: القرطبي١٩/٢٠، مرجع سابق، وروح المعاني ١٨٨/٣٠ مرجع سابق .

على أنه يُلمَحُ من خلال الوعد بذلك الأمر بما تضمنه الوعد، ولعل هذا هو مراد من فسر الآية بالنهي، إذ الوعد لا ينفي الأمر بفعل الأسباب التي تؤدي إلى عدم النسيان بل هو مقتضٍ له .

٧ - **وحتى لا يخرج الرسول**ﷺ عن صفاته البشرية بهذه الكفالة الإلهية، فقد أُخِذتْ هذه الكفالة الإلهية قدرها الضروري، وذلك من وقت سماع النبيﷺ القرآن من جبريلعليه السلام إلى الانتهاء من تبليغه، وحفظه بوسائل الحفظ من قراءة، وكتابة بحيث لا يمكن نسيانه من مجموع الأمة لكفالة اللهﷻ لها بالعصمة عن الخطأ، **فإذا ما تم ذلك فإن النبي**ﷺ **يعود إلى حالته الطبيعية البشرية فيعتريه النسيان**، وهذا هو معنى الاستثناء في قوله ﷻ: ﴿**إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ...**﴾ أي أن بعض القرآن ينساه النبي ﷺإذا شاء الله أن ينساه، ويدخل في هذا: نوعان يرجعان إلى الحقيقة اللغوية لمادة "نسي":

أولهما: النسخ في العمل: وسماه الآلوسي: (نفي نسيان المضمون)، فقال: "أي سنقرئك القرآن فلا تغفل عنه، فتخالفه في أعمالك"([1])، وقال القرطبي:"وقيل: النسيان بمعنى الترك، أي يعصمك من أن تترك العمل به، لا ما شاء الله أن تتركه لنسخه إياه، فهذا نسخ في العمل"([2])، وقال به الجنيد، وأقره ابن كيسان النحوي([3])، ويجعل هذا المفهوم للنسيان في حيز الثبات ما قرره أحمد بن يحيى ثعلب في قول الله ﷻ﴿... **نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُم** ...﴾"التوبة/٦٣": "لا ينسى الله عز وجل، إنما معناه تركوا الله فتركهم، فلما كان النسيان ضرباً من الترك وضعه موضعه، وقوله تعالى﴿... **فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ اليَومَ**

([1]) تفسير روح المعاني٣٠/١٨٨، مرجع سابق، وانظر: تفسير الطبري ٣٠/١٥٤، مرجع سابق، فإنه أورد أسماء القائلين بالنسخ العملي .

([2]) تفسير القرطبي ٢٠/١٩، مرجع سابق .

([3]) لسان العرب١٤/١٣٢، مرجع سابق .

تُنْسَى﴾طه/١٢٦" أي تركتها فكذلك تترك في النار"([1])، ومثله قوله تعالى ﴿...**نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ...**﴾، وقوله-تعالى ذكره-﴿...**وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ...**﴾ "البقرة/٢٣٧" .

ويُرَشِّح هذا المفهوم في معنى النسيان المستثنى مطابقته، لقوله -تعالى ذكره-: ﴿**مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**﴾ "البقرة/١٠٦"، قال ابن منظور:"﴿ **نُنسِهَا**﴾ أي نأمركم بتركها، يقال أنسيته أي أمرت بتركه، ونسيته تركته، ثم نقل عن الفراء نحواً من التقرير السابق"([2]) .

وثانيهما: ما يعرض نسيانه للنبي ﷺ نسياناً مؤقتاً: كشأن عارض الحوافظ البشرية، ثم يقيض الله ﷻ له ما يُذَكِّرُه به، ففي صحيح البخاري عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: سمع النبي ﷺ رجلاً يقرأ من الليل بالمسجد فقال: (يرحم الله فلاناً! لقد أذكرني كذا وكذا آية أسقطتهن، أوكنت أنسيتها من سورة كذا وكذا)([3])، وفيه أيضاً: أن رسول الله ﷺ أسقط آيةً في قراءته في الصلاة فسأله أبي بن كعب: أنُسِخَت؟ فقال: (نسيتها)([4]) .

فدخل في هذا قول من قال: "الاستثناء بمعنى القلة"([5])، وتظهر بذلك مناسبة قوله ﷻ ﴿**إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى**﴾ "الأعلى/٧" تذييلاً للجملة السابقة **في أن ما يقرؤه النبي ﷺ من القرآن هو من قبيل الجهر فالله ﷻ يعلمه، وما ينساه فيسقطه هو من قبيل**

([1]) لسان العرب١٤/١٣٢، مرجع سابق .

([2]) لسان العرب١٤/١٣٢، مرجع سابق، وذهب إلى أن معنى الآية يشير إلى النسخ قتادة والحسن وغيرهما، انظر روح المعاني ٣٠/١٨٨، مرجع سابق، وحكاه صاحب الكشاف قولاً ٤/٢٠٤، مرجع سابق، وارتضاه في تفسير الجلالين وأيده الصاوي في حاشيته عليهما ٤/٤١١، مرجع سابق، وكذا في البحر المحيط ٧/٤٥٨، مرجع سابق، وانظر تفصيل تلك الأقوال في: فتح القدير ٤/٥٢٣، مرجع سابق .

([3]) رواه البخاري ٥/٢٣٤٥، مرجع سابق .

([4]) رواه البخاري ٥/٢٣٤٦، مرجع سابق .

([5]) راجع: التحرير والتنوير ٣٠/٢٨١، مرجع سابق، وروح المعاني ٣٠/١٩٠، مرجع سابق، وانظر: ابن كثير ٤/٤٢٨، مرجع سابق .

الخفي، فيعلم الله ﷻ أنه اختفى في حافظته حين القراءة، فلم يبرز إلى النطق به([1])، وقال القرطبي:"الجهر ما حفظته من القرآن في صدرك، وما يخفى هو ما نسخ من صدرك"([2]).

وعدم جواز نسيانه على مجموع الأمة، هو ما عبر عنه القرطبي بعدم النسيان الكلي في قوله:"وقيل إلا ما شاء الله أن ينسى، ثم يذكر بعد ذلك، فإذاً قد نسي، ولكنه يتذكر ولا ينسى نسياناً كلياً"([3])، وقال عنه الآلوسي:"ثم إنه ﷺ لا يقر على نسيانه القليل أيضاً، بل يذكره الله تعالى أو يُيَسِّرُ من يُذَكِّرُه، ثم إن المراد من نفي نسيان شيءٍ من القرآن:نفي النسيان التام المستمر مما لا يقر عليه ﷺ"([4])، وقرر الإمام النووي ذلك فقال: "قوله ﷺ (كنت أنسيتها) دليل على جواز النسيان عليه ﷺ فيما قد بَلَّغه إلى الأمة، وقال القاضي عياض:"جمهور المحققين: جواز النسيان عليه ابتداءً، فيما ليس طريقه البلاغ، واختلفوا فيما طريقه البلاغ والتعليم، ولكن من جوَّز قال: لا يُقَر عليه، بل لا بد أن يتذكره، أو يذكره"([5])،

وقال الإسماعيلي:"النسيان من النبي ﷺ لشيء من القرآن يكون على قسمين:

أحدهما: نسيانه الذي يتذكره عن قرب، وذلك قائم بالطباع البشرية، وعليه يدل قوله ﷺ في حديث ابن مسعود رضي الله عنه في السهو: (إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون)([6])،

([1])انظر: التحرير والتنوير ٣٠/ ٢٨٢، مرجع سابق .

([2])تفسير القرطبي ٢٠ /٢١، وأشار الزمخشري إلى نحو من ذلك ٢٠٤/٤، مرجع سابق .

(٤) تفسير القرطبي ١٩/٢٠، مرجع سابق، وهذا التقرير يُجْمَعُ بين الأقوال المختلفة في معنى قوله ﷻ : ﴿**إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ...**﴾ حال كون هذه الجملة القرآنية تتسع لكل تلك التآويل، وتحتملها من حيث الأصيل الشرعي واللغوي، وبذا لا يكون مبرٌ لاستظهار الإمام الطاهر بن عاشور -رحمه الله تعالى- لكون معنى الاستثناء ينصرف إلى النسخ في التلاوة، انظر: التحرير والتنوير ٣٠/٢٨٠، مرجع سابق . وثَمَّ قولان ضعيفان ذكرهما القرطبي في آخر تأويل هذه الجملة ٢٠ /١٩، مرجع سابق .

([4]) روح المعاني ١٩٠/٢٠، مرجع سابق .

([5]) شرح صحيح مسلم ٣٢٣/٦، مرجع سابق .

([6]) البخاري ٩٠٠/٢، مرجع سابق

والثاني: أن يرفعه الله عن قلبه([1])...

فأما القسم الأول فعارض سريع الزوال لظاهر قوله ﷻ **﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾** "الحجر/٩"، "([2])، وقال ابن حجر:"وفي الحديث حجة لمن أجاز النسيان على النبي ﷺ فيما ليس طريقه البلاغ مطلقاً، وكذا فيما طريقه البلاغ، لكن بشرطين: أحدهما أنه بعدما يقع منه تبليغه، والآخر أنه لا يستمر على نسيانه، بل يحصل له تذكره...إما بنفسه، وإما بغيره، فأما قبل تبليغه فلا يجوز عليه فيه النسيان أصلاً، وزعم بعض الأصوليين وبعض الصوفية أنه لا يقع منه نسيان أصلاً، وإنما يقع منه صورته ليُسَنَّ -أي ليُشَرِّع لمن بعده من المسلمين ما يصنعون إن وقع لهم النسيان-، قال عياض: لم يقل به من الأصوليين أحدٌ إلا أبو المظفر الاسفراييني، وهو قولٌ ضعيفٌ"([3]).

فقد تضافرت([4]) عبارات العلماء على جواز النسيان غير الكلي على النبي ﷺ ، وإنما أُكثر من إيرادها للأهمية .

وبهذا التقرير يُجْمَعُ بين الأقوال المختلفة في معنى قوله ﷻ :﴿ إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾حال كون هذه الجملة القرآنية تتسع لكل تلك التآويل، وتحتملها من حيث الأصيل الشرعي واللغوي، وبذا لا يكون مبرر لصاحب التحرير والتنوير -رحمه الله تعالى- لكون معنى الاستثناء ينصرف إلى النسخ في التلاوة([5]) .

([1]) يعني كنسخ العمل المذكور .

([2]) فتح الباري ٨٦/٩، مرجع سابق، والذي قرأ بضم أوله من غير همزة هم الكوفيون وابن عامر ونافع من السبعة، وقرأ أبو عمرو وابن كثير بفتح أوله بهمزة ﴿ ننسأها﴾ انظر: متن الشاطبية في القراءات السبع، مرجع سابق عند قول الناظم في فرش سورة البقرة: (وننسخ به ضم وكسر كفى...وننسها مثله من غير همز ذكت إلى) .

([3]) فتح الباري ٨٦/٩، مرجع سابق .

([4]) فائدة: تضافر وتظافر وتظاهر بمعنىً واحد هو التعاون والاجتماع . انظر: لسان العرب ٧١/٨، مرجع سابق .

([5]) انظر: التحرير والتنوير ٢٨٠/٣٠، مرجع سابق . وثم قولان ضعيفان ذكرهما القرطبي في آخر تأويل هذه الجملة ١٩/٢٠، مرجع سابق .

وعلى هذا التقرير يحمل قول الفراء-رحمه الله تعالى- في وجه الاستثناء:" ﴿**إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ...**﴾ "الأعلى/٧" وهو لم يشأ أن تنسى شيئاً، كقوله ﷻ : ﴿**خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ...**﴾ "هود/١٠٧"، ولا يشاء([1])، ويقال في الكلام: لأعطينك كل ما سألت إلا ما شئت، وإلا أن أشاء أن أمنعك، والنية على أن لا يمنعه شيئاً، فعلى هذا مجاري الأيمان، يستثنى فيها، ونية الحالف التمام"([2])؛ إذ لا وجه لنفي النسيان مطلقاً([3])، وقد ثبت من طريق صحيح، إلا على سبيل نفي النسيان الكلي كما سبق تقريره، وكما يُحْمَلُ عليه قوله ﷺ في حديث بدء الوحي الذي رواه الحارث في مسنده: (فما نسيت شيئاً بعد)([4]) .

ومن أعظم فوائد الاستثناء ومقتضياته المنهجية في تعليم القرآن الكريم ما قرره الآلوسي من:"أن الله –تعالت قدرته– يُعْلِمُ عباده بضعفهم وقدرته، حتى يعلم النبي ﷺ أن عدم النسيان من فضله تعالى، وإحسانه لا من قوته، أي حتى يتقوى على ذلك جداً، أو ليعرف غيره ذلك"([5]).

وهو تأكيدٌ على المصدرية الإلهية، ومقتضياتها .

([1]) أظهر منه قوله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً**﴾ "الإسراء/٨٦"، ولم يشأ –سبحانه- ذلك، وصرَّح بذلك من أئمة اللغة أبو إسحاق، ثم ذكر في توجيه الآية قريباً مما قُرِّر هاهنا فقال: "ويجوز أن يكون (إلا ما شاء الله) مما يلحق بالبشرية، ثم يتذكر بعد، ليس أنه على طريق السلب للنبي ﷺ شيئاً آتاه من الحكمة" . انظر: لسان العرب ١٤/١٣٢، مرجع سابق، وانظر في ورود كلام مستثنى منه ولا يقتضي التحقيق: شرح العقيده الطحاوية ص٤٢٥، مرجع سابق .

(٣) (الفراء) أبي زكريا يحي بن زياد ت ٢٠٧هـ: معاني القرآن ٣/٢٥٦ دار السرور – تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، محمد علي النجار، وقريبٌ منه قول من قال: "الاستثناء بمعنى القلة، وأريد بها النفي مجازاً، وقيل الكلام عليه من باب: ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم..." انظر: روح المعاني ٣٠/١٩٠، مرجع سابق .

([2]) حتى أن الإمام أبا حيان –رحمه الله تعالى- في البحر المحيط ٨/٤٥٨، مرجع سابق، نعى على من زعم أن الاستثناء غير مراد، وقال: "يجعل الاستثناء كلا استثناء، وهذا لا ينبغي أن يكون في كتاب الله، ولا في كلام فصيح"، وهو كلامٌ فصيحٌ، ولكن يسَّاقط تثريبه، ثم تثريب الآلوسي –رحمه الله تعالى- عليه بما جُمِع به بين تلك الأقوال في التقرير أعلاه .

([4]) مسند الحارث ٢/٨٦٧، مرجع سابق .

([5]) انظر: روح المعاني ٣٠ /١٩١، مرجع سابق، وانظر: البحر المحيط ٨/٤٣٠، مرجع سابق .

المطلب الثاني: معالجة مشكلة التهمة بقصور العاطفة البشـــرية، والتفكـــير البشري:

أما العاطفة البشرية التي يحتمل اتهام الرسولﷺ بها فيمكن أخذ التهمة بالخوف من عدم قبول الكفار لبعض القرآن نموذجاً؛ إذ قد يُتهم بأن ذلك دفعه إلى كتم بعض القـرآن، وهو ربما الذي دفع بعض القُصَّاص المتأخرين ليدبجوا مهازيل من الأحاديث بأن النـبي ﷺ كان يود ألا ينـــزل ما ينفر الكفار منه.

فيؤخذ هذا النموذج في نفي هذه التهمة:

حيث يقول اللهﷻ **﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾** "التكوير/٢٤"، وقد ورد في هـــذه الآية تأويلان بحسب القراءتين الواردتين فيها(١)، وكل قراءةٍ تتضمن معنىً ثانياً بحســـب النظر إلى حرف الاستعلاء (على)، فصارت هذه الكلمة نافية لأربعة معـــانٍ، ترجـــع إلى الشبهة المذكورة في المطلب بأعظم الأساليب إعجازاً:

فالقراءة الأولى ﴿بِضَنِينٍ﴾ أي ببخيلٍ، بل هو مُبَلِّغٌ الوحيَ كله، و**﴿بِظَنِيـــنٍ﴾** بمتهمٍ، فنفى اللهﷻ عنه النقص، واعتوار الشك في الأمانة، تأكيداً لقوله **﴿أَمِينٍ﴾** إن كـــان المراد(٢)جبريلعليه السلام، وإن كان المراد النبي ﷺ فكذلك، لا يبخل بالوحي، ولا يقصـــــر في التبليغ والتعليم .

أما الصفة الثانية المنفية في قراءة الضاد فهي الحرص، وتلوح من بين ثنايا التعبـير عن عدم التقصير بقوله **﴿بِضَنِينٍ﴾** أي ببخيل...مع أنه أمكن أن يقـــول بمقصـــر؛ إذ إن

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورويس عن يعقوب بالظاء، وقرأ الباقون بالضاد . انظر: طيبة النشر، مرجـــع سابق، عند قول الناظم: (بظنين الظا رغد حير غنا ...) .

(٢)انظر: تفسير القرطبي ٢٤٢/١٩، مرجع سابق، فقد ذكر أن أهل التأويل اختلفوا في صاحب هذه الآية **﴿وَمَا هُـــوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾** جبريل عليه السلام أو محمد ﷺ .

البخيل إنما يبخل بما عنده نظير ما يزعمه مصلحةً له إلى وقت الحاجة، فلو كان النبيﷺ لا يُصَرِّح لهم بجميع الوحي بقصد المصلحة، فيتأول تأخير بعض الوحي لعدم حلول وقته كالبخيل، ومما يمكن التمثيل به: ما فيه تبكيتٌ لهم، أو توبيخٌ له مما قد يشينه في قلوبهم (كما في سورة عبس)...، **فقد يقال**: للمعرفة بأن المصلحة الدعوية تقتضي كتم هذه الآيات خوف الفتنة-كما يطرأ على تفكير بعض الدعاة- فسيكتمها لذلك بفعل عاطفته البشرية...، ولكن الله ﷻ نفى عنه هذه العاطفة القاصرة...فلا يبخل بالوحي لأجل المصلحة الظاهرة، فكيف لو عدمت؟.سواءً كان هذا تتابعاً في وصف جبريلعليه السلام أو كان وصفاً للرسول الجليلﷺ ...ويؤيد ما قُرِّر هاهنا: أن فعل البخل لا يتعدى بـ﴿**عَلَى**﴾ إلا على تضمينه معنى الحرص ونحوه([1])، ولذا قال ابن زيد في هذه الآية: "**الغيب القرآن الذي لم يضن به على أحدٍ من الناس ...أداه وبلغه، بعث الله به الروح الأمين جبريلعليه السلام إلى رسول الله ﷺ فأدى جبريلعليه السلام ما استودعه اللهﷻ إلى محمد ﷺ وأدى محمد ﷺ ما استودعه اللهﷻ وجبريلعليه السلام إلى العباد ليس أحدٌ منهم ضنَّ، ولا كتم، ولا تخرص**"([2]).

والقراءة الثانية: ﴿**بِظَنِينٍ**﴾ بالظاء المشالة معناها: ما هو على الغيب بمتهمٍ، تأكيداً لقوله ﴿**أَمِينٍ**﴾، والتهمة مطلقةٌ، ونفيها مطلقٌ، فتشمل ما قيل في معنى الظنة به: تقصيراً، أو ضعف قوةٍ على التبليغ([3])، فكل ذلك منتفٍ عنه.

والصفة الثانية المنفية بقراءة الظاء هي التجرؤ: حيث يظهر تضمين﴿**بِظَنِينٍ**﴾ "بالظاء المشالة" معنى المتجرئ عند عدم الرضا بالقرآن المنزَل، بقرينة قيام﴿**عَلَى**﴾ مقام

([1]) وهو ما قال به الآلوسي -رحمه الله تعالى-، انظر: روح المعاني ١٠٧/٣٠، مرجع سابق، ومثله قرر صاحب التحرير والتنوير ١٦٢/٣٠، مرجع سابق، في إحدى المعاني التي وجه بها الآية .

([2]) فيما خرجه ابن جرير في تفسيره عنه ٨٢/٣٠، مرجع سابق .

([3]) انظر: روح المعاني ٣٠ /١٠٦، مرجع سابق .

في، والمعنى: ليس بمتهمٍ في أمر الغيب –وهو الوحي- ولا متجرئٍ عليه، فيقول من عند نفسه شيئاً فيدعي أنه الوحي، **بل ما بلغه هو الغيب لا ريب فيه**، ولذا فعكسه يتعدى بعلى كقولك: ائتمنه على كذا .

وعلى ما ذكر في تأويل القراءتين لا يظهر مُسَوِّغٌ لترجيح الآلوسي هذه القراءة الأخيرة على الأولى بأنها أنسب بالمقام لاتهام الكفرة لهﷺ(١)؛ إذ قد ظهر ما في القراءة الأولى من حِكَمٍ بالغةٍ بادي الرأي...وربما يظهر للمتأمل –بعدُ– أيضاً في هذه، وفي غيرها – ما لا تنقضي معه عجائب القرآن – على أن الطبري رجح القراءة الأخرى بالضاد(٢).

كما يظهر في هذه الآية: نفي تسرب شكٍ في ذات المَلَك من حيث التهمة أو من حيث الخلل"النقص" على قراءة ﴿**بِظَنِينٍ**﴾، أو تسرب شكٍ في ذات النبيﷺ من الحيثية ذاتها، وهو الأقرب أن يكون المراد، لأن المَلَك معروفٌ بطاعته لربه بلا دخلٍ ولا خللٍ فطرةً قد فُطِر عليها، وهذا معلومٌ حتى عند كفرة العرب، وكذلك من حيث سياق السورة .

وسبحان الله بحمده، سبحان الله العظيم،

والحمد لله رب العالمين .

---

(١) روح المعاني ٣٠ /١٠٦، مرجع سابق .

(٢) انظر: تفسير الطبري ٣٠/٨٣، مرجع سابق .

obeikandl.com